أحمد قريع
أبو علاء

على دروب الفتح

(١)

البداية

فلسطين

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث

أحمد قريع
أبو علاء

على دروب الفتح

(١)

البداية

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث

البداية،

الكتاب الأول من سلسلة إصدارات "**على دروب الفتح**".

أحمد قريع (أبوعلاء) / مؤلف من فلسطين.

الطبعة الأولى - القدس، 1443 هـ - 2022 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من معهد القدس للدراسات والأبحاث / جامعة القدس.

القدس ، فلسطين

معهد القدس للدراسات والأبحاث

جامعة القدس

صندوق بريد: 51000

تلفاكس: 00972-02-2790666

الموقع الالكتروني: https://isr.alquds.edu

البريد الالكتروني: isr@alquds.edu

الرقم المعياري: ISBN 978-9950-364-35-6

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث

ISBN 978-9950-364-35-6

9 789950 364356

الفهرس

تمـهيـــد ٧

المقدمة..... ١١

مخزون الذّاكرة للتّواصل مع الجيل الجديد ١٣

العهدة العمرية ٢٣

فلسطين المستهدفة..... ٢٧

الحركة الصّهيونيّة/ الأهداف المتجددة ٢٩

المؤتمر الصهيوني الأوّل ٣٣

الحرب العالميّة الأولى ٤٣

الانتداب البريطانيّ على فلسطين ٤٩

الانتداب البريطانيّ وتسليح اليهود ٥٣

الثّورات والانتفاضات الفلسطينيّة ٥٥

الثورة الأولى -ثورة نيسان / ابريل ١٩٢٠..... ٥٥

المؤتمرات الوطنيّة الفلسطينيّة..... ٥٩

ثورة عام ١٩٢٩ ..... ٦٣

الثّلاثاء الحمراء..... ٦٩

تصاعد النّضال الفلسطينيّ..... ٧٣

(انتفاضة ١٩٣٣) ٧٣

المؤسّسات العسكريّة الصّهيونيّة ٧٧

تهريب الأسـلحة لليهـود..... ٧٧

الشّيخ عزّالدّين القسّام ظاهرة وطنيّة عظيمة..... ٨١

ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ..... ٨٥
الحرب العالميّة الثّانية توقّف الثورة ٩٣
إجهاض الثّورة، ووقف الإضراب ٩٧
الجّامعة العربيّة ١٠١
القضيّة الفلسطينيّة في الأمم المتّحدة، وسياسة بريطانيا في الهروب إلى الأمام! ١٠٣
قرار التّقسيم ١٠٣
تداعيات قرار التّقسيم ١٠٧
قرار التّقسيم... فجر معارك فلسطين ١١٥
معركة القدس ١١٩
معركة حيفا ١٢٩
مأساة يافا المكرّرة ١٣١
المؤامرة في صفد ١٣٣
الهدنة بين مصر وإسرائيل ١٤١
اتّفاقيّة الأردنّ وإسرائيل ١٤٣
اتّفاقيّة الهدنة بين لبنان وإسرائيل ١٤٥
الهدنة بين سوريا وإسرائيل ١٤٧
معركة النّاصرة وسقوطها ١٥١
معركة كفار عصيون ١٥٧
الجّبهات العربيّة بعد الانسحاب البريطانيّ ١٦١
تمسّك الفلسطينيين بأرضهم ١٦٥
النّكبة الكارثة والتّطهير العرقيّ المقصود ١٦٩

المجازر الّتي ارتكبها اليهود ١٧١
خلال حرب عام ١٩٤٨ ..... ١٧١
مجزرة دير ياسين في الذّاكرة... ولن تنسى ١٧٣
مجزرة طنطورة حيفا ١٧٥
مجزرة قرية أبو شوشة ١٧٧
مجزرة الدّوايمة ١٧٩
مجزرة عيلبون ١٨١
المجزرة والانطلاقة ١٨١
مجزرة عيلوط ١٨٣
مجازر أخرى جرت خلال سنوات ١٩٤٨-١٩٥٦ ..... ١٨٥
عنوان جديد ١٨٧
النّكبة ١٩١
النّكبة في عيون اللاّجئين ١٩٥
المخيّمات الفلسطينيّة في كلّ المناطق ١٩٩
قرارات الأمم المتّحدة الخاصّة باللاجئين الفلسطينيّين ٢٠١
الأحزاب والقوى السّياسيّة في فلسطين حتّى العام ١٩٤٨ ..... ٢٠٣
النّكبة المتجدّدة بالأيدي العربيّة ٢٠٧
حكومة عموم فلسطين... المشروع المرفوض!!؟ ٢١١
الأردنّ وفلسطين بعد النّكبة ٢١٥
مؤتمر أريحا ١/كانون أول/١٩٤٨ ..... ٢١٩
صُـوَر ٢٢١

تمـهيـــــد

لعـل أول الأسـئلة الـتي سـيطرحها القـارئ على نفسـه، لدى تصفحـه أوراق الجـزء الأول مـن هـذا الكتـاب الذي مـن المقـدر له ان يتواصـل على مـدى تسـعة أجـزاء هي الآن قيـد الإعـداد للنـشر، هـل يريـد أبـو عـلاء إعادة كتابـة التاريـخ الفلسـطيني المعـاصر؟ ومـا الذي سـيضيفه إلى كل هـذا الفيـض الهائل مـن الكتب الـتي أرّخـت كل جوانـب القضيـة الفلسـطينية؟

وربمـا سـيعيد القـارئ طرح السـؤال ذاته بصورة أشـد إشـكالية من سـابقه، إذا مـا إسـتعرض عناويـن مـادة هـذا الإصـدار، متعجبـاً في قـرارت نفسـه؛ هل أن الرجـل الذي أنفـق كل حياته مناضـلاً على دروب العمل الوطني، يـود أن يعيد تقديم نفسـه راويـاً من رواة القضية الفلسـطينية، وهو لم يسـبق له في واقـع الأمر أن إدعى إمتـلاك مثـل هـذه الصفة، المقتـصرة على المؤرخـين والباحثين ومن لـف لفهم؟

في الحقيقـة، ليـس هنـاك ما يثير التسـاؤل أو يبعث على الإسـتغراب في شيء، إذا عـرف المتلـقي أن أحمـد قريـع، وقد ناهـز الثمانين مـن العمر، بـات ممتلئاً بحس تاريـخي عميـق، وأصبـح كمـن دخـل في سـباق مـع الزمـن، لتدويـن كل الحقائـق والوقائـع والتطـورات الـتي كنـت على صلـة بهـا عـن قـرب قريـب، بمـا في ذلـك المفاوضـات الفلسـطينية الإسرائيليـة مـن إتفاقيـة أوسـلو وما أعقبهـا من محطات تفاوضيـة لاحقة.

غـير أنني في هذه السلسـلة من الإصدارات، التي وطـدت نفسي على كتابتها،

أود التذكير فقط، أو قل إنعاش الذاكرة العامة، بالحقائق التاريخية التي عاشها الشعب الفلسطيني على مدى نحو قرن من الزمن، لا من أجل تقديم رواية تاريخية جديدة، أو إعادة كتابتها بصورة مختلفة عما إستقر في المخيلة المشتركة، وأنما بهدف وضعها كمقدمة تمهيدية لما سوف يلي من حكاية طويلة، سوف ترتقي فيما بعد الى مرتبة شاهد على العصر، وذلك عند تدوين الأجزاء المتأخرة من هذه الحكاية.

أحسب ان هذا الإستدراك كان ضرورياً لتوضيح سبب الرجوع الى الوراء كثيراً، قبل الشروع بتقديم هذه الشهادة، التي هي في واقع الأمر ركن من أركان الرواية الفلسطينية الأشمل والأطول، وقبل البدء ايضاً بعرض الوقائع، وسرد الحقائق التي تقع في موقع القلب من النص التاريخي الخاص بقضية شعب تعرّض لشتى صنوف القهر والتآمر، ناهيك عن الإقتلاع والقتل والتشريد، وظل رغم ذلك كله صامداً لا تتزعزع له إرادة، ولم يسلّم لعدوه أو يستسلم.

والحق، أن مجمل العناوين التي تشكل معمار الجزء الأول من هذا الإصدار، قد شبعت بحثاً على مدى السنوات الطويلة الماضية من عمر الحكاية الوطنية الفلسطينية، وأن بعض العناوين البارزة منها قد تصدّر، كل على حدة، كتباً وابحاثاً ومراجع مهمة احتلت أمكنة لائقة بها على رفوف المكتبة الفلسطينية، الأمر الذي يؤكد على ما ذهبنا اليه آنفاً، من أننا نود التذكير فقط بما إستقر عميقاً في الوجدان العام ليس إلا.

ففي هذا الكتاب الواقع في نحو ٢٥٠ صفحة هناك ما يقارب ٥٠ موضوعاً متسلسلاً حسب حدوثها التاريخي، بعضها موغلاً في القدم، وبعضها الآخر

جـرى في فـترة مـا قبل الحرب العالميـة الأولى، فيمـا أكثرية العناويـن تنتمي الى زمن مـا بعـد الحـرب العالمية الثانيـة، ليتوقف الـسرد عند اعتـاب عام النكبـة الكبرى، أي عام ١٩٤٨، الذي كان بالفعـل عامـاً مفصليـاً في مسـار قضيـة فلسـطين وحيـاة الشـعب الفلسطيني.

وإذا كان لهـذه الصـورة الإجماليـة لمحتـوى الكتـاب الأول مـن سلسـلة الإصـدارات هـذه أن تقول شـيئاً، فإنهـا تقول دون تزيّـد، دعونا نلـقي نظرة خاطفة الى الـوراء، ونقلّـب بعـض صفحات هذا التاريخ الفلسـطيني المديـد، وذلك قبل أن ندلـف الى لـب موضـوع الإصدارات التسـع هـذه، ونعني بـه حركة فتـح، وعلاقتي بهـذه الحركـة الـتي إنتسـبت اليهـا مبكـراً في مطلـع شـبابي، شـأني في ذلـك شـأن الألـوف مـن أبناء شـعبي.

قـد يكـون المتبحـرون في التاريـخ الفلسـطيني، من أبنـاء الأجيـال المقبلة، بمـن في ذلـك الباحثـون والمثقفـون، على درايـة ومعرفـة تفصيليـة أكـثر بكـثير ممـا احتوتـه هـذه العناويـن، وقـد يكونـون على إطلاع أوسـع وأعمق ممـا لدي من سرديـات ومعلومات شـائعة عـن هذه الوقائـع المدونـة في أمهات الكتـب والمراجع المتخصصـة بتاريـخ القضيـة الفلسـطينية، إلا أنـني وجـدت أن مـن اللائـق وضع رؤوس الموضـوعات الـواردة في مـتن هـذا الكتـاب، كمقدمـة عامـة وموجـزة لا بـد منهـا، قبـل الدخـول الى قلب شـهادتي الشـخصية عن زمـن لاحق، وأعـني به زمن فتـح والثـورة الفلسـطينية المعاصرة.

وعليـه، أرجـو إعتبـار هـذا الجـزء مـن سلسـلة الأجـزاء التسـعة، المنـوي إصدارهـا تبـاعاً، مجـرد مقدمـة عامة منعشـة للذاكـرة الجماعيـة المشـتركة، خاصة للذيـن ليـس لديهـم معرفـة كافيـة عـن تاريـخ القضيـة الفلسـطينية، وفصولهـا

المتعاقبة، ممن سيتلقون هذه الشهادة الشخصية في أزمنة مقبلة، ولا يودون الغوص عميقاً في بحر هذه القضية، التي لا تزال حاضرة بقوة، ومفعمة بالحقائق والوقائع والتطورات المتناسلة من بعضها بعضاً.

وليس من شك في أن القارئ المهتم بالوقوف على مزيد من وقائع الزمن الفلسطيني العصيب، سوف يجد في الإصدارات اللاحقة تحديداً أكثر، وطرحاً أشمل لرؤوس الموضوعات المتراصفة بين دفتي كل إصدار على حدة، وسوف يجد كذلك أنه كلما تقدمنا في زمن هذه الشهادة الشخصية، كلما وضعنا مزيداً من النقاط الصحيحة فوق مزيد من الحروف الدقيقة، آملا في النهاية ان أكون قد أسهمت اسهاماً متواضعاً في كتابة ونشر صفحة واحدة او أكثر من صفحات تجربة ذاتية وفوق شخصية، هي ما سوف يرد على مئات الصفحات من هذه الشهادة التاريخية.

المقدمة

خلال رحلة العمر، واستلهام الماضي القريب الّذي عاصرناه وشاركنا في صياغة بعض مفرداته وأحداثه، وجدت ضرورة وحاجة للإدلاء بشهادة مكتوبة عن هذا التّاريخ وتلك الأحداث بصدق ودون جماليات الإدّعاء، خاصة بعد أن قرأت الكثير مما كُتِب عن تاريخ الشّعب الفلسطينيّ ونضاله وكفاحه من خلال ثوراته المتعاقبة منذ نهاية القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين وحتّى النّكبة الأولى والثّانية، وأحداث هذه المرحلة التّي لم تنتهي، ولم تحسم نتائجها بعد، سواء أكانت تلك الحقائق المدوّنة لهذا التّاريخ أم كانت تلك الكتابات الّتي تحمل بين سطورها «أملاح» التّحريف من خلال إبراز الذّات، أو الأنا الطّاغية الّتي أثرت على نور الحقيقة وسطوعها.

إنّ معرفة تاريخنا ونضال شعبنا بشكل دقيق تعطينا القدرة على رسم الخطوات، والخطط والبرامج المستقبليّة، وقراءة الأحداث والمواقف بشكل أكثر دقّة، وهذا بحدّ ذاته ضروريّ لأجيالنا القادمة.

لا شكّ في أنّ شعبنا الفلسطينيّ الذّي ناضل وكافح وتصدّى لكلّ المشاريع الاستعمارية الاستيطانية الاحتلاليّة، والّذي خُطِّط لاقتلاعه من أرضه وتشريده، له الحقّ في معرفة الحقيقة الّتي أحاطت بقضيته عبر هذا الزّمن الممتد؛ لكي يجدّد حيويّة العطاء الّذي لم يتوقف يوماً رغم كلّ أشكال القمع والاضطهاد والتشّريد والقهر.

لقد عشت المراحل الأقسى من تاريخ شعبنا، وساهمت مع أخوة وقادة عظام في مراحل النّضال الحديث للشعب الفلسطينيّ وانطلاقة ثورته المعاصرة. ولهذا وجدت أنّه من واجبي أن أُساهم مع كلّ من ساهم، وكلّ من لم يكتب بعد في تاريخ هذه المرحلة، لعلّ ذلك يكون مفيداً للأجيال القادمة والحكم عليه.

مخزون الذّاكرة للتّواصل مع الجيل الجديد

اليـوم... وأنـا أكتب جزءاً يسـيراً مـن صفحات نضال الشّـعب الفلسـطينيّ... هـذه الصّفحـات المملـوءة بالألـم والتّضحيـة والفـداء لهـذا الشّـعب، أكتـب عـن شـفافية وشرف ونور الفلسـطينيّين السّـاطع في هذا التّاريخ المؤلم والقاسي والحاقد والعنـصريّ الّذي نسـف أرض الطّهـارة، وأرض الأنبياء وأرض السـلام، وحرم أبناء هـذه الأرض مـن الأرض والسّـماء، بل ومـن الحياة وعشـق الحياة.

أكتـب هـذه الصّفحـات لأقـدّم لأبنـاء فلسـطين، شـبابها وأطفالهـا، وأرسـم لوحـة مسـتقبلها، لـكي يعرفـوا حقيقـة ما جـرى، ومـاذا فعـل آباؤهـم وأجدادهم، ليعرفـوا كلّ دقائـق الأحـداث، والحقيقـة عن فلسـطين وتاريخهـا وأرضها وشـعبها، وليشـاهدوا بخيالهـم وبحقائـق واقعهـم كلّ صخـرة، شـجرة، وردة، عشـبة، نبتـه، ليمونـة، وبرتقالـة لوّنـت سـاحل فلسـطين، وشـجرة تين وزيتـون ونخلـة ذكرت في القرآن.

في هـذه الصّفحـات القليلـة أكتب لـيرى أطفال فلسـطين وشـبابها كلّ جبل وكلّ واد وكلّ ذرة رمـل مخفيّـة، في صحـراء النّقـب وحـتّى نهر الأردن وبحـيرة الحولة وطبريـا، حيـث سـار المسـيح فـوق مياههـا، وأطعـم النّـاس مـن سـمكها... أكتـب ليبحـث الجيـل الجديـد عن مواقـع ينابيعهـا وأبارهـا، ومغاورهـا وكهوفهـا... أكتب هـذه الصّفحات ليستنشـق الشّـباب عبق أرض فلسـطين بعد سـقوط المطـر عليها في مطلـع الخريـف، ويأكلـوا من أعشـابها، ويحضنـوا أعشـاش طيورها.

لقـد أغنى الباحثون في القضيّة الفلسـطينيّة والتّاريخ الفلسـطينيّ من خلال الـسّرد التّاريخيّ والتّحليل السّـياسيّ والاقتصاديّ والاجتمـاعيّ كلّ جوانب القضيّة، بـل تنـاول العديـد مـن الكتّـاب والباحثـين التفّاصيـل المختلفـة لتطّـور القضيّـة الفلسـطينيّة يومـاً بعـد يـوم، سـواء الثّـورات والمقاومـة، أو يوميّـات الانتفاضـات المختلفـة، واسـتعرضوا الوثائق المدّونة سـواء المكتوبة باللغـة الانجليزيّة أو العربيّة، والّـتي غطّت جميـع جوانب هـذا الـصّراع الدّرامي والطّويل.

ولهـذا فإنّ الاضافـة في هذا المجال تكـون مجدية فقـط إذا تناولنا الإنطلاقة الحديثـة لحركـة المقاومة الفلسـطينيّة مـن النّكبة الفلسـطينيّة الكـبرى عام ١٩٤٨، ومـا تلاهـا من أحـداث وتطـورات. إنّ هذا الأمر يـبرز دور أولئـك الرّجال الخالدة أسـماؤهم وأفعالهـم، والّذيـن أشـعلوا الضّـوء وسـط الظّلمـة المفروضـة على العالـم العـربيّ. إنّهـم رجالات حركـة «فتح» الأوائل، الّذيـن حملوا راية الكفاح الفلسـطينيّ لأكـثر مـن سـتّين عامـاً... مجدّديـن وضـع فلسـطين في عـين العالـم، ووضع شـعب فلسـطين في دائرة الضّـوء.. أبداً.

إنّ تكـرار الكتابـة عـن تاريـخ وجغرافيّـة فلسـطين الآن ليـس ضعفـاً في الكتابـة، وليـس اجـتراراً لمـا أورده الباحثون والكتّـاب مؤرّخون كانوا أم سياسـيّون أم رجال دين، ففلسـطين تحتلّ المكانة المقدّسـة المتميّزة بالنّسـبة للدّيانات السّـماويّة كلّهـا، بمـا فيهـا الدّيانـات غـير الرسـمية السـماوية الشّرقيّـة كالبوذّية والكنفوشـيّه والزّرادشـتيّه، ولهـذا كان الحجّـاج مـن وإلى فلسـطين وخاصّـة القـدس يحملـون الفكـر والفلسـفة والدّيانـة والحضـارة إلى كلّ جهـات الأّرض الأربعـة.

إنّ فلسـطين، الّتي هي جزء صغير من بلاد الشّـام (سـوريا، ولبنان، والأردنّ، وفلسـطين) عُرفـت دائمـاً، على تعاقـب الأزمنـة، بأنهـا القسـم الجنـوبيّ مـن بـلاد

الشّـام... هكـذا عرفهـا المؤرّخـون العـرب، وهكـذا تحدّث عنهـا هـيرودوت المؤرّخ اليونـانيّ، والّذي عـرف بـاب التّاريـخ منذ قديـم الزّمـان وبهذا الاسـم وردت لدى مـؤرخي الحـروب الصّليبيّة.

تعـد فلسـطين قلب الوطـن العـربيّ، وواسـطة عقـده، وقبلة أنظـاره، ومهد الدّيانـات التّوحيديّـة الكـبرى في التّاريـخ وملتـقى الحضارات.

وهي بـلاد خـيّرة جميلـة، وتعـدّ مـن أهـمّ بقـاع الأرض قاطبة مـن النّواحي الاسـتراتيجيّة والسّـياحيّة والدّينيّـة.

تبـــلغ مسـاحة فلسـطين حوالي ٢٧٠٠٩ كيلو مترات مربّعة، وهي مسـتطيلة الشّكـــل ويبلـغ طولهـا مـن الشّـمال إلى الجنـوب نحـو ٤٢٠ كـم، وأمّـا عرضهـا فيـتراوح في الشّـمال ٥١ كـم و٧٠ كـم، وفي الوسـط يـتراوح العـرض بـين ٧٢ كـم، و٩٥ كـم، بينمـا يتّسـع في الجنوب حـتّى يصل نحـو ١١٧ كم. وقـد ذكرها جُغّرافيـون العـرب ومؤرّخوهـم، فقالـوا: فِلَسْـطين بالكسر ثّـم الفتح ثمّ السـكون وطـاء مهملة و آخـره نون.

أعتـبرت أرض فلسـطين ممـرّاً مهمّـاً وملتـقى للحضـارات القادمـة مـن آسـيا والمتجهـة إلى إفريقيـا، فقد كانـت مركز الطّـرق الحربيّة من مـصر الفرعونيّة إلى بلاد فـارس وبلاد الرّوم. وشـكّلت دائمـاً محوراً لكلّ التّطـوّرات التّي تجري في مصر وسـوريا والعـراق والجزيـرة العربيـة ولذلـك فقـد تعرّضت أرض فلسـطين في أواخـر الألف الرّابعـة وأوائـل الألـف الثّالثـة قبـل الميـلاد لموجـة عربيّة سـاميّة كبـيرة هي الموجة المعروفـة باسـم الأموريّـة الكنعانيّة، حيث نـزل الأموريّـون فيها داخل بلاد الشّـام وجنوبهـا الـشّرقيّ، وأسـتوطن الكنعانيون سـاحلها وجنوبها الغربيّ أي فلسـطين.

حكم الكنعانيون أرض فلسطين لمدة تزيد عن١٥٠٠ عام، وذلك منذ ٢٥٠٠ ق.م، إلى نحو١٠٠٠ ق.م. وفي هذه الأثناء هاجر نبيّنا إبراهيم -عليه السّلام- من العراق إلى بلاد الشّام في العام ١٨٠٥ ق.م تقريباً، حيث كان برفقته عدد من المناصرين والمؤمنين الهاربين من سطوة النّمرود وبطشه، وأقام النّبيّ إبراهيم عند دخوله أرض فلسطين في مدينة نابلس، والتّي كانت تسمى «شكيم»، وانتقل بعدها إلى بئر السّبع، وهناك رزق بابنه إسماعيل، وذلك في عام ١٧٩٤ ق.م.

وبعد مولد إسماعيل بأربعة عشر عاماً تقريباً رزق النّبيّ إبراهيم من زوجته سارة بولده الثّاني إسحاق الّذي كان أباً ليعقوب الّذي هاجر هو وعائلته ومريديه إلى مصر في الفترة الّتي عمّ القحط فيها أرض فلسطين -وخاصة جنوبها، وكان ذلك العام ١٦٥٦ ق.م. وهناك أستعبدهم فراعنة مصر، وأستباحوا نساءهم، وقتلوا أطفالهم حتّى جاء النّبي موسى برسالته، واستطاع أن ينقذ بني إسرائيل من أيدي الفراعنة بعد أن أقاموا في مصر مدّة تزيد عن أربعمائة عام.

وقد وردت قصة نزوح بني اسرائيل في القرآن الكريم، وقبل ذلك دوّنت أسفار العهد القديم، للتّذكير بقضيّة نزوح بني إسرائيل من مصر إلى سيناء ثم إلى فلسطين وبأنّ أرض فلسطين كان يقيم فيها شعبها من القبائل العربيّة الكنعانيّة وقصّة بني إسرائيل الّذين كان ردّهم على النّبي موسى بدخول الأرض المقدّسة أرض فلسطين بقولهم: «إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون»، كانت معروفة المكان الّذي استقرّت فيه قبائل بني إسرائيل (الأسباط) في منطقة «صياغة» غرب بلدة مادبا، واستقرّوا عند المياه بما سمي «بعيون موسى» الّتي لا زالت قائمة. وقد غضب النّبي موسى

واتّجه نحو جبل «نبو» واختفى هناك... وتحضرني في هذه اللحظة مقولة الأخ القائد الشهيد أبو عمار: نحن شعب الجبارين... مكرراً إياها في كل خطاب...

تاه بنو إسرائيل أربعين سنة في صحراء سيناء وفق السرد الديني متجاورين مع بدوها، ومعانين من كلّ الصّعوبات الّتي تفرضها الطّبيعة الصّحراويّة حتّى جاء أمر الله بالتّوجّه نحو الأرض المباركة فلسطين، وجاء في أسفار العهد القديم:

«صعد الشّعب إلى المدينة -أريحا- وأهلكوا كلّ من في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» *وهذا إشارة إلى دور النّبيّ يوشع بن نون خليفة النّبي موسى في الدّخول إلى أرض فلسطين في العام ١١٨٦ ق.م، حيث كان قد قاد البدو والرّعاة من الجيل الّذي توالد في الصحراء أثناء التّيه، واحتلّ بهم مدينة أريحا، وقتل كلّ من فيها كما ترد أيضاً رواية طالوت وقيادته لبعض الجنود الذين اجتازوا نهر الأردن إلى أريحا.

ورغم هذا العنف الدّمويّ الّذي كان يهدف لإرهاب سكان المدن والقرى الأخرى إلاّ أنّ الكثير من الأراضي والمساحات من أرض فلسطين بقيت في أيدي الكنعانيين. وفي هذا الوقت قدمت من جزيرة «كريت» اليونانيّة حالياً مجموعة من القبائل الفلسطينيّة الّتي استوطنت ساحل غزّة وامتدّ نفوذهم حتّى جبال الجليل، الأمر الّذي هدّد الوجود اليهوديّ وهذا دفع القبائل اليهوديّة للتّوحّد بقيادة الملك شاؤول بن قيس عام ١٠٢٠ ق.م.

قتل شاؤول بعد ستّة أعوام على يد الفلسطينيين، وتولى بعده داوود بن يس، ومن بعده ابنه سليمان. وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم، بما في ذلك صناعة داوود للتّروس الحديديّة والاعداد العسكريّ للجيش، وكذلك إعداد

العربـات. دخـل داوود عـدّة معـارك مـع الفلسـطينيين، وانتـصر في معظـم معاركه معهـم، وجعـل مدينـة الخليـل عاصمـة له، لكـنّ ابنـه سـليمان نقـل العاصمة إلى القـدس وجعـل جبـل صهيـون مقـرّاً له. وبمسـاعدة الفنيقيين قـام سـليمان ببناء الهيـكل من خشـب الأرز، وهـو الهيكل الّذي عرف باسـمه. لكـنّ دولتهم لم تسـتمرّ سـوى أربعين سـنة، فانهـارت نتيجـة زيـادة الضرائب.

انقسـمت مملكـة يهـودا في الجنـوب. حيث نشـبت بينهما حروب ونـزاعات... فـكِلا المملكتـين كانت مليئـة بالفتن والدّسـائس والقتال، ولم تمض سـنوات قليلة على وفـاة النّـبيّ سـليمان عام ٩٣٥ ق.م... حـتّى هاجـم ملـك مـصر شيشـق الليـبيّ مملكـة يهـودا الّـتي ضمّـت أورشـيلم (القـدس) والمناطـق المجـاورة لهـا، فدمّرهـا، وأخـذ كنـوز سـليمان مـن الهيـكل عام ٩٢٠ ق.م. وتحطّمـت المملكتـان تحـت أقدام الأشـوريين والكلدانيـين، وقد دكّـت مملكة يهودا نهائيّـاً في عام ٥٨٤ ق.م. حين حرق نبوخـذ نـصر هيكل سـليمان، ثمّ سـاق الجنـد وملك يهـودا أسرى إلى بابـل، فعادت فلسـطين عربيّـة وأسـتقبلت هجـرات العرب مـن الجزيرة ومـن سـوريا والعراق.

وهنـا لا بـد مـن التّأكيـد على أنّ ما يسـمى المملكـة الإسرائيليّة عاشـت نحو قرنـين مـن الزّمـن (٩٢٣-٧٢٢ ق.م)، أمّـا المملكة اليهوديّة الّتي سـميت على القسـم الجنـوبي مـن فلسـطين، فقد دامت ١٣٦ سـنة بعـد خـراب المملكـة الإسرائيليّة في الشّمال.

نلاحـظ هنـا أنّ اليهود لم يدخلـوا فلسـطين إلاّ في حقبة متأخرّة من الزمـن، وقـد سـبقهم العـرب الكنعانيون بمئات السـنين وبنو حضـارة عريقة قويـة، كما أن اليهـود لـم يحكمـوا كلّ فلسـطين، بل بعـض الأجـزاء الجبلية الوسـطى فيهـا حتى في ذروة قوّتهـم زمـن النّبيّ داوُد وسـليمان من بعـده، حيث توزّعوا خارج فلسـطين رغم

عدائهم لشعوب المنطقة المجاورة مشتغلين في مجال التجارة، ولم يعد يربطهم بفلسطين إلاّ ذكريات جبل صهيون. لقد لخّص هـ ح. ولز في كتابه «موجز التاريخ» تاريخ اليهود (العبرانيين) بما يلي:

«كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حالة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار... ومن البدء حتى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارىء في تاريخ مصر وسوريا وأشور وفنيقيا، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم.

كما نلاحظ أنّ القبائل اليهوديّة كانت أقلّ رقياً وحضارة من القبائل الكنعانيّة وكذلك من شعوب العراق وسوريا، وكان الفضل الأكبر في كلّ ما بنوه من مبان وهياكل ومعابد للفنيقيين الّذين استخدموا خشب الأرز في معظم مبانيهم.

لقد مكث اليهود في (بابل - العراق) نحو سبعين سنة، وهي الفترة التي تعرف بالسّبي البابليّ عندما تم سبي خمسون ألفاً منهم إلى العراق.

في هذه الفترة تغيّرت ألسنتهم ومفاهيمهم ولمّا استولى كورش ملك الفرس على بابل عام ٥٣٩ ق.م. ومن ثمّ على بلاد الشّام أمر بإرجاع اليهود الّذين ساعدوه حين فتح بابل، لكن قسماً من هؤلاء آثروا البقاء في بابل حيث كانوا يتعاطون التّجارة، وقد تمكّن الّذين عادوا إلى القدس من أن يعيدوا في عام ٥١٦ ق.م. بناء هيكلهم الّذي تهدّم عام ٥٨٦ ق.م كما تمكنوا من وضع مجموعة قوانين دينيّة عرفت بالدّيانة اليهوديّة، وجعلوا رئيس كهنتهم زعيماً لهم.

امتدّ عهد الفرس في فلسطين من ٥٣٨ إلى ٣٣٢ ق.م وكانت نهاية عهدهم

على يد الإسكندر المقدونيّ الّذي نشر الثقّافة اليونانيّة بين اليهود وفرضها عليهم، إلاّ أنّ ذلك أدىّ إلى ثورة المكابيين الّتي فرضت الدّين اليهوديّ بالقوّة على الشّعوب الّتي كانت تعيش في فلسطين في الفترة الواقعة بين ١٠٢-٧٦ ق.م .

ومن المعروف أنّ سلطة المكابيين أيضاً لم تمتدّ إلى كلّ فلسطين بل كان العرب الأنباط في جنوب فلسطين، والّذين امتدت حضارتهم حتى سهل البقاع شمالاً ومدائن صالح شمال الحجاز، وقد دخلوا في معارك عديدة مع المكابيين، انتصر فيها الأنباط دائماً.

تمّ تدمير الأنباط على يد الرّومانيين الذين فرضوا سيطرتهم على البلاد، وعينّوا «هيرودس بن أنتيباتر» ملكاً على اليهود عام ٣٧ ق.م ورغم اعتناقه لليهوديّة إلاّ أنّ اليهود كانوا ضدّه؛ لأنّه روميّ وأمّه عربيّة.

وفي نهاية عهد هيرودس ولد المسيح -عليه السلام- في بيت لحم وواجه مقاومة ضارية لدعوته من اليهود والرومان، وبعد تنصّر الإمبرطور قسطنطين واعتناقه المسيحية في مطلع القرن الرّابع الميلاديّ شيّد عدّة كنائس منها كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم.

لقد حاول اليهود عام ٧٠م وعام ١٣٥ م القيام بحركات ثوريّة، فحطّم الرّومان الّذين تلقّوا مساعدة قوية من الفلسطينيين في القدس وقتلوا معظم السكّان اليهود، فهرب العديد منهم إلى سوريا ومصر وليبيا وشمال إفريقيا وغيرها من البلاد، ويعتبر المؤرّخون أنّ هذا كان آخر عهد اليهود بأرض فلسطين، ولم يعد لهم فيها أي نشاط سياسي أو ديني.

وعلى الرّغم من أنّ العرب ظلّوا سكان فلسطين وأكبر تشكيلاتها القومية، فإنّ السّلطان السّياسيّ ظلّ بيد الرّومان، ولهذا اشتعلت ثورة قادتها ملكة تدمر العربية (الزّباء) ضدّ الرّومان عام ٢٦٧م، وأنزلت بالقائد الرّوماني «هرقليان» هزيمة ساحقة، واحتلّت فلسطين. وحكمتها أعواماً عدّة حتّى تمكّن الرّومان من استرداد سلطانهم.

يظهر واضحاً أنّ اليهود لم يكونوا يوماً عنصراً متجانساً، ورغم فرضهم الدّيانة اليهوديّة على بعض القبائل في مناطق مختلفة حيث تواجدوا، إلاّ أنّهم فقدوا لغتهم الأصليّة، وأصبحت هناك لغات متعددة كاليديش في منطقة شرق روسيا وأوروبا الشّرقيّة ولم يتبقَ لهم سوى الذّكريات والحنين لفترة زمنيّة محدودة من تواجدهم على بعض أجزاء فلسطين زمن النّبيّ داوُد وسليمان.

أما عرب فلسطين فقد تواجدوا على أرضهم قبل ظهور اليهود وبعد رحيلهم عنها. وهم العرب الكنعانيون الّذين ظهرت تسميتهم في التّوارة والكتب اليهوديّة المقدّسة، فكلّ زعم لحق اليهود في فلسطين باطل تاريخياً.

لقد كان العرب الفلسطينيون في فلسطين وأور سالم موجودين عندما هدم هدريان الرّومانيّ هيكل اليهود كما فعل نبوخذ نصر وحرّم عليهم سكن مدينة القدس بعد أن تمّ بناء المدينة الجديدة الّتي كانت تسمّى أنذاك أورشليم، وتّم تهجيرهم إلى المنافي المختلفة.

وفي العام ٦٣٦م رفع العلم العربي الإسلامي فوق مدينة القدس، وخرج أهلها يرحبّون بالخليفة عمر بن الخطّاب الّذي حقن دماء أهلها. ولهذا طلب البطريرك صفرونيوس ممثّل المسيحيين في بيت المقدس وفلسطين أن يستمرّ

في منع اليهود من السّكن في القدس، ووضع ذلك شرطاً للاستسلام الكامل، وتسليم مفاتيح القدس إلى الخليفة عمر.

ويظهر هنا أنّ هذا الشّرط لم يكن له علاقة بالمسيحيين أو امتيازاتهم أو رفع الجزية والضّرائب عنهم، وقد وثقوا بعدالة المسلمين وتسامحهم والّذي يختلف عن غدر اليهود وحقدهم وخديعتهم.

العهدة العمرية

وتلبيــة لهــذا الـشّرط أعطـى الخليفـة العـادل عمـر بـن الخطّـاب عهـده المشـهور «بالعهــدة العمريّـة» و الّـتي جـاء فيهـا:

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أعطى عبدالله بن عمر أمير المؤمنين أهل إيليا مـن الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملّتها، لا تسكن كنائسهم، ولا تهدمّ ولا ينقص مـنها ولا من حيزها، ولا من صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضانّ أحد منهم، ولا يسـكن إيلياء معهم أحد من اليهود... الخ».

كتـب وحـرّر سـنة خمـس عـشرة، وشـهد على ذلـك خالــد بـن الوليـد، وعبدالرّحمـن بـن عـوف، وعمـرو بـن العـاص، ومعاويـة بـن أبي سـفيان.

ولا تـزال العهـدة العمريّة الـتّي أعطيت لسـكان القدس محفوظة لدى سـدنة كنيسـة القيامـة، وتعـدّ من أقـدم المواثيـق الدّوليّـة الرّفيعـة التي تدعـو إلى احترام الشّـعائر الدّينيّـة، وصيانة الأماكن المقدّسـة.

وعلى الرّغـم ممـا تقـدّم فـإنّ العـرب المسـلمين كانـوا ذوي طبيعـة تسـامحيّة بحكــم أنّ الدّيـن الإسـلاميّ يشـير إلى الدّيانـة اليهوديّـة وإلى الأنبيـاء اليهـود بعين المسـاواة بـين الأنبيـاء. ولذلك فـإنّ عدداً كبـيراً من اليهـود الّذين بقـوا في الأراضي العربيّـة والإسـلاميّة حظـوا بالاهتمـام والعناية، فازدهـرت تجارتهـم وأحوالهم. كما

أنّ الدّيـار الاسـلاميّة العربيّـة كانـت ملجـأ لليهـود عندمـا حوربـوا واضطهدوا في الدّول الأوروبيّـة الغربيّـة منها كإسـبانيا في القـرن الخامس عشر والقرن السّـادس عـشر عندمـا كانت تسـود محاكـم التّفتيش، وفي روسـيا عام ١٨٨١ على اثـر اغتيال القيصر «الكسـاندر الثـاني»، فلم يكن أمام اليهـود مكاناً يلتجئون إليـه إلّا المغرب العـربيّ حيـث قابلهـم العرب المسـلمون بالتّسـامح والمعاملـة الكريمة.

ولـم يكـن الحال كذلـك بالنّسـبة لوجودهـم في دول أوروبـا الغربية، حيث تعـززّت جـذور اللاسـاميّة فيهـا، والنّاجمـة عـن تذبـذب الأوضـاع الاقتصاديّة في تلـك الدّول، واحتـكار اليهـود لمهنـة التّجـارة والرّبا.

لقـد كانـت نظـرة المسـيحيين، وخاصـة الرّهبـان ورجـال الدّيـن، إلى التّجارة نظـرة دونيّـة فيهـا احتقـار لليهـود، لكـنّ هـؤلاء لـم يقاومـوا هـذا الاتّجـاه عنـد اليهـود، وبـقى اليهود هـم أصحاب التّجـارة الأوائـل، وأصحاب المصـارف الصّغيرة.

ومـع التّطـور الاقتصـاديّ الأوروبيّ، وامتهـان الأوروبيـين لمهنـة التّجـارة، وولادة الاقتصـاد الرّأسـماليّ أصبح الأوروبيون أنفسـهم معنيـون بالتّجارة وامتلاك رأس المـال والمصارف.

وهنـا بـدأ اليهـود يفقدون دورهـم المتميّز، وبدأت تفـرض عليهـم الضّرائب الكبـيرة، فعاشـوا في تجمّعـات مغلقة في المدن الكبيرة سـمّيت ب «الغيتـو»، ولم يعد الأمـر سـهلاً على يهـود أوروبـا الغربيّـة فنزحـوا إلى أوروبـا الشّرقيّة، حيـث كرّروا مهنتهـم في التّجارة والمرابـاة والأماكـن التّرفيهيّة!!

لكـنّ هـذا الحـال لم يـدم طويلاً حـتى بـدأت حملة ضـدّ اليهود في روسـيا وبولنـدا، وبـدأت هجـرة جديـدة إلى الغـرب. ونتيجـة لهـذه الظّـروف الصّعبـة

الـتّي أحاطـت باليهـود شرقـاً وغربـاً، ونمـو الـرّوح اللاسـاميّة نتيجـة للأوضـاع الاقتصاديّـة المتردّيـة، واحتـكار اليهـود في بعـض الأحيان لـرأس المـال، تضاعفت الهجمـة ضـدّ اليهـود، مـع تصاعـد العـداء النّاجـم عـن الأزمـات الاقتصاديّة في أوروبـا الشّرقيّـة والغربيّـة والهجـرة مـن هنـا إلى هنـاك ...!! وتوجيـه الاتّهـام إلى اليهـود وكأنّهـم وراء تلـك الأزمـات الاقتصاديّـة، إضافـة إلى الاضطهـاد والمجازر الرّوسـيّة لليهـود عام ١٨٨٢ بعـد اتّهامهـم بقتـل القيـصر.

نشـأت الحركـة الصّهيونيّـة، الـتّي وضعـت أوّل أهدافهـا إيجـاد دولـة لليهـود ولكـن خـارج أوروبـا، وجـاءت هـذه الأفـكار لهـذه الحركـة في أوج الحركـة الاسـتعماريّة لـلدّول الأوروبيّـة الـتّي وجـدت في اليهـود مـادة مناسـبة لاسـتغلال مـوارد الشّـعوب الأخـرى واقتصادهـا، فوجد هدف مشـترك بين الحركـة الصّهيونيّة وقيـادة هـذه الدّول الاسـتعماريّة.

فلسطين المستهدفة

إنّ موقع فلسطين الاستراتيجيّ المتوسّط جغرافيّاً في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسّط وفي غربي آسيا، وموقعها على منتصف الطّرق المؤدّية إلى مصر وإفريقيا وإلى الهند بعد أن احتلتها بريطانيا و استعمرتها، دفع كلّ الدّول الاستعماريّة لتجديد طمعهم في فلسطين، وخاصّة بعد أن قام نابليون باحتلال مصر وحصاره مدينة عكا الفلسطينيّة عام ١٧٩٩م قبل ظهور الحركة الصّهيونيّة بعقد، والّذي حاول أن يستميل اليهود إلى جانبه في مواجهته بريطانيا، وخاصّة بقوله: « إنّهم أمّة فريدة، وصاحبة حقّ مشروع في وراثة فلسطين»، مؤسساً بذلك للصهيونية غير اليهودية.

ولا شكّ أنّ هذا القول هو تعبير عن الإحباط والشّعور بالهزيمة التّي مُنِيَ بها حول أسوار عكا، وصمود أحمد باشا الجزّار في وجه نابليون الّذي فتحت أمامه الأمصار، حيث لم يجد شيئاً يعبّر به عن هزيمته النّكراء إلاّ بإلقاء قبعته داخل أسوار عكا، وكأنّه بذلك قد فتحها.

وهنا تنافست القوى الاستعماريّة على أرض فلسطين، وخاصة بعد افتتاح قناة السويس، وكانت تهدف في نفس الوقت إلى عدم قيام دولة عربيّة موحّدة في هذه المنطقة، لأنّ قيام مثل هذه الدّولة سيتعزّز مع الأيام، وسينهي المصالح البريطانيّة والغربيّة فيها فيما بعد.

ولهذا كان التّصوّر هذا الّذي ساعد في غرسه فيما بعد الحركة الصّهيونيّة

رغـم قلّـة عدد اليهـود في فلسـطين، والّذيـن كان عددهـم «لا يتجاوز تسـعة آلاف وسـبعمائة نسـمة موزعـين بـين القـدس والجليـل وصفـد وطبريـا حسـب تقريـر القنصـل البريطانيّ نفسـه في العـام ١٨٣٩.

الحركة الصّهيونيّة/ الأهداف المتجددة

جاءت فكرة تأسيس الحركة الصّهيونيّة نتاج الموقف المعادي لليهود في أوروبا وظهور حالة اللاساميّة في المجتمعات الأوروبيّة، وجاءت كذلك تلبية لرغبات الدّول الاستعماريّة في البحث عن قوى وجاليات تنفّذ رغباتها في تعزيز استعمارها للشّعوب، ورغبة الرّأسماليين اليهود في توجيه المهاجرين اليهود من أوروبا الشّرقيّة وروسيا نحو هذه المستعمرات بدلاً من الاستقرار في أوروبا الغربيّة الّتي واجه فيها اليهود اتّهامات عديدة، وتنامي موجة العداء للساميّة. وبرزت مجموعة من أفكار المتنفّذين والمفكرين اليهود المتعصّبين تحضّ على الذّهاب إلى فلسطين، والاستيطان فيها تحت شعار العودة لمقولة «أرض الميعاد».

من أوائل اليهود الّذين ساهموا في بناء اللبنات الأولى للحركة الصّهيونيّة «الحاخام هيرتس كاليشر» وذلك في كتابه «البحث عن صهيون» الصّادر عام ١٨٦١. وكانت نتيجة جهود كاليشر أن تأسّست أوّل جمعية صهيونيّة في ألمانيا.

وفي العام الّذي يليه ١٨٦٢ نادى (موشيه هس) في كتابه (موسى والقدس) بإقامة دولة يهوديّة في فلسطين. أما دافيد بن غوردن فقد نادى في نفس الفترة بما أسماه «دين العمل» مشدّداً على أهميّة استعمار اليهود لأرض فلسطين، والعمل اليدويّ لتحويل اليهود إلى أمّة كغيرها من الأمم.

ويعدّ كتاب ليون بينسكر «التّحرير الذّاتي» الصّادر عام ١٨٨٢ الّذي حلّل

فيـه الوضـع اليهوديّ، وخلص إلى المنـاداة بوطن قوميّ لليهود في فلسـطين أو أمريكا يعدّ أقـوى الكتابـات الأولى، وأعمقها أثراً».

لـم تلـق الأفـكار الصّهيونيّـة الأولى تجاوبـاً سريعـاً حـتّى عام ١٨٨١م عندمـا مـارس الـرّوس المجـازر مـع اليهـود على أثـر اتّهامهـم باغتيـال القيـصر الـرّوسيّ الكسـندر الثّـاني، واعتقـال العـشرات مـن المفكريـن الـرّوس ونفيهم إلى سـيبيريا بنفـس التّهمة.

ولنفـس الأسـباب قامـت جمعيّـات صهيونيّـة بتمويـل الهجـرة مـن أوروبـا الشّرقيّـة إلى المسـتعمرات وإلى فلسـطين، خاصّـة أنّـه كان يوجـد في فلسـطين مؤسّسـات خيريّـة تعتمـد على مـا يقدمـه الأثرياء اليهـود لهـذه المؤسسـات، ومنها: المؤسّسـة العبريّـة اللندنيّـة لاسـتعمار الأراضي المقدّسـة الّـتي تأسّسـت عام ١٨٦١، والتّحالـف الإسرائيـليّ العالـميّ الّذي أقـام مدرسـة «ميكفـه يسرائيـل» الزّراعيّـة قـرب يافـا بهـدف تدريـب اليهـود على الأعمـال الزّراعيّـة وتوطينهم في فلسـطين.

في هـذا الوقـت قامـت مجموعـة مكوّنة مـن بضع مئات مـن الشّـباب اليهود بتكويـن مـا سـمي بحركـة (البيلـو)، و كان هدفهـا الأوّل العمل على دفـع اليهود من أجـل الهجـرة إلى فلسـطين، ولـم تنجح جهودهـم المبذولـة. نظراً لرفض السّـلطات العثمانيّـة أيّ هجـرة يهوديّة إلى فلسـطين.

لكـنّ هـذه الحركـة تمكّنـت في العام ١٨٨٢ مـن توجيـه (٢٠)!! مسـتوطناً يهوديّـاً مـن القادمـين من روسـيا نحـو فلسـطين، واسـتطاع هؤلاء تحويـل بعض المواقـع العربيّـة الصّغـيرة إلى مسـتوطنات يهوديـة، مثـل: «عيـون قـارة» الّـتي سـمّوها «الأوّل مـن صهيـون»، و«ملبـس» الّـتي أصبحـت «بتـاح تكفـا» أي

«بـاب الأمـل» وقـد شـكّلت المسـتوطنات النّـواة للاسـتيطان الأوّل الـزّراعيّ في المراحـل اللاحقـة.

لـم يكـن الأمـر سـهلاً أمـام هـذه المجمـوعات الأولى، فاليهـود لـم يعتادوا على العمـل الـزّراعيّ وكانـت الملاريـا تهـدّد وجودهـم فهم لـم يعتـادوا على مثل هذه الظّـروف، فقـد كانـت أعمالهـم تقتـصر على التّجـارة والخدمـات المصرفية!!

لكـنّ دعـم البـارون أدمونـد دي روتشـيلد الـثّريّ الصّهيـونّي أنقـذ تجربـة هـذه المجموعة مـن الانهيار، وبالأمـوال المقدّمة لها اسـتطاعت أيضـاً شراء أراض وعقـارات. وتوالت المؤتمـرات والاجتماعات اليهوديّة في المـدن الأوروبيّة والولايات المتّحـدة مـن أجل دعم الهجـرة اليهوديّـة إلى فلسـطين، وتدريب الشّـباب اليهوديّ على الأعمـال الزّراعيّـة ليكونـوا قادريـن على الاسـتمرار في حال وصولهم فلسـطين ضمـن عمليـة أطلق عليهـا تفليـح اليهودي.

المؤتمر الصهيوني الأوّل

بقيت الحركة الصّهيونيّة في طور المراحل الأولى للولادة في صراع مع أفكار يهوديّة أخرى تدعو إلى التّمسّك بالرّوح المعنويّة اليهوديّة، وجذور الدّيانة اليهوديّة إلى أن تمكّن ثيودور هرتسلّ من عقد المؤتمر الصّهيونيّ الأوّل في مدينة بازل السّويسريّة في ٢٧ أب ١٨٩٧.

حضر المؤتمر الصّهيونيّ الأوّل (٢٠٤) من المندوبين الممثلين لجمعيات صهيونيّة في الشّرق والغرب، ولم يحضره أحد من اليهود السفاردين في الشرق. وتمخّض هذا المؤتمر عن تحديد أهداف الحركة الصّهيونيّة، فيما عرف ببرنامج بازل، وإنشاء الأداة التّنظيميّة لتنفيذ هذا البرنامج (المنظمة الصّهيونيّة العالميّة)، وحدّد المؤتمر الصّهيونيّ الأوّل البرنامج الصهيوني السياسي بما يلي:

١- **العمل على الاستيطان في فلسطين بواسطة العمال الزّراعيين والّصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة.**

٢- **تقوية وتغذية الشّعور بالوعي القوميّ اليهوديّ.**

٣- **تنظيم اليهوديّة العالميّة وربطها بواسطة منظّمات محليّة ودوليّة تتلاءم مع القوانين المتّبعة في كّل بلد.**

٤- **اتّخاذ الخطوات التّمهيديّة للحصول على الموافقة الحكوميّة الضّروريّة لتحقيق الغاية الصّهيونيّة.**

لقد عكس مؤتمر بازل جوهر الحركة الصّهيونيّة، كحركة عنصريّة لا ترتبط بالقوانين الإنسانيّة أو العلاقات الإنسانيّة الدّوليّة، بل كإمتداد ونفوذ وأداة للدّول الاستعماريّة في بوتقة تبادل المنفعة كحليف للدّول الاستعمارية ومنفّذ لأهدافها.

ولهذا فإنّ استزراع الدّول الاستعماريّة للحركة الصّهيونيّة كان هدفه خلق فكر يتّجه نحو بناء قوميّة لليهود في منطقة الشّرق الأوسط على حدود قناة السويس، والطّريق الرّابط بين آسيا وافريقيا، إضافة إلى هدف منع قيام كيان عربيّ قويّ ومستقل تماماً، حيث انسجمت أهدافها مع أهداف الحركة الصّهيونيّة.

ففي الوقت الّذي تتخلّص فيه أوروبا من التّجمعات اليهوديّة وتخفّف من حدة معاداة السّاميّة والتوترات الداخلية، تستفيد الحركة الصّهيونيّة من ذلك بدفع اليهود للهجرة إلى فلسطين، وتأسيس كيان سياسي ذات تشكيل قومي بديلاً للدّيانة اليهوديّة الصّرفة.

وقد اعتمدت الحركة الصّهيونية في التّرويج لهدفها هذا على النّصوص التّوراتيّة القديمة والتاريخ اليهودي في المرحلة الّتي ذكرنا، ومن خلال إطلاق «مقولة شعب الله المختار»، والعودة إلى وطن الأجداد، وبناء الهيكل من جديد..!!

وللتّأكيد على ما ورد، نورد ما جاء في مذكرات هرتزل بعد مؤتمر بازل بقوله «لو أردت أن أختصر مؤتمر بازل في كلمة واحدة -وهذا ما أفعله صراحة- لقلت:

«في بازل أرسيت أسس الدّولة اليهودية، ولو أعلنت ذلك اليوم لقابلني

العالـم بالسّـخرية والتّهكّـم، ولكـن بعـد خمـس سـنوات على وجـه الاحتمـال، وبعـد خمسـين سـنة على وجـه التّأكيـد سـيرى هـذه الدّولـة جميـع النّاس.

شـكّل المؤتمـر الصّهيـونيّ الأوّل الإطـار التّنظيـميّ للمراحل اللاحقة للنشّـاط الصّهيـونيّ، وعلاقتـه بالدّوائـر الاسـتعماريّة الّـتي يمكنها المسـاهمة في تحقيق الهدف الأوّل للصّهيونيّـة في اسـتعمار فلسـطين. وكانـت أفـكار هرتسـل تعمـل وتخطّـط للحصـول على قـرار أو مرسـوم رسـميّ من السّـلطان العثمـانيّ يجيز به حـقّ اليهود في الاسـتيطان في فلسـطين، وإقامـة وطـن لهـم فيها. أمّـا بعـض المجمـوعات الصّهيونيّة الأخـرى -وخاصـة تلـك القادمـة من روسـيا- فقد نـادت بتعزيـز الثّقافـة اليهوديّة وإعادة إحيـاء تعاليم التّـوارة والتّاريخ اليهوديّ في فلسـطين وفق دعـوات أحاد هعام.

وعمـل كلّ فريق بطريقتـه، ولكـنّ هرتزل فشـل في اقناع السّـلطان العثمانيّ عبـد الحميـد الثاني بإصـدار مثل ذلـك القـرار أو الميثـاق، وقال: «خير لي أن يسـير المبضـع في جسـدي على أن أتنـازل عـن قطعـة مـن أرض فلسـطين». ورغـم تدخل القيـصر الألمـانيّ في هـذا الشّـأن، ومراجعـة السّـفيرالأمريكي في تركيـا وزيـر خارجيـة تركيـا بشـأن إسـكان اليهـود في فلسـطين وسـوريا، لكـنّ البـاب العـالي الـتّركيّ رفـض اسـكان اليهـود فيها، ولم يسـفر تدخـل بريطانيـا في الأمـر عام ١٨٩٢ عـن نتيجـة ايجابيّة.

لـم يوقـف هرتـزل محاولاتـه لدى السّـلطان العثمـانيّ، وهـو المقتنع بـأنّ أيّ ميثـاق يصدر مـن الباب العالي ينهي مشـكلة قيام دولة يهوديّة في فلسـطين، عكس المجمـوعات الصّهيونيّـة التّي كانت تتّجه إلى التّسـلّل إلى الاراضي الفلسـطينيّة عبر الحصـول على فـيز للسّـياحة، بجـوازات سـفر مختلفـة، ومـن ثـمّ الاسـتقرار هنـاك وشراء الاراضي.

لقد قدّم هرتزل، ومن يؤيّدوه، الإغراءات العديدة للسّلطان العثمانيّ آنذاك السّلطان عبدالحميد الثّاني أشهر سلاطين العثمانيين، ولم يستجب لتلك الإغراءات اليهوديّة واتّصالاتهم العديدة الدّاخليّة والخارجيّة.

فقد عرضوا عليه المساعدة على إنشاء أسطول عثمانيّ بحريّ، ومساعدة السّلطان في سياسته الأوربيّة، وإنشاء جامعة عثمانيّة في بيت المقدس تغني عن الذّهاب إلى أوروبا، والمساعدة في المشروعات المقرّرة، وأن يسدّدوا ديوناً سنويّة تساعد الدّولة على إصلاح اقتصادها المنهار، وأن يكونوا لها عوناً لدى الدّول الغربيّة، وكانت هذه الدّول تعدّ العدّة للقضاء على الدّولة التّركيّة.

لقد صاغ هرتزل وفريقه عروضه بطريقة تشير إلى أنّهم لا يريدون احتلال أرض، بل يريدون تملّك أراض في فلسطين، والإقامة فيها تحت الرّاية العثمانيّة وكأنهم تابعون لها، وتحت عنايتها.

لكنّ السّلطان عبدالحميد الثّاني ردّ على هذا الاحتيال اليهوديّ بقوله كما ورد في مذكرات هرتزل: «انصحوا الدّكتور هرتزل بألّا يتّخذ خطوات جدّيّة في هذا الموضوع، إنّي لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي. لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض، وروّاها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مزّقت امبراطوريتي يوماً فإنّهم يستطيعون أنذالك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أمّا وأنا حيّ فإنّ عمل المبضع في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي، وهذا أمر لا يكون. إنّي لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة».

شكّل موقف السّلطان العثمانيّ عقبة كبيرة أمام المشروع الصّهيونيّ،

وفي الوقت الّذي تضاعفت فيه هجرة اليهود إلى بريطانيا ودول أوروبا الغربيّة، تشكّلت في بريطانيا لجنة ملكيّة لتّحقيق الهجرة إلى بريطانيا، الأمر الّذي أدّى إلى مواجهة لاساميّة، و الّذي دفع هرتزل إلى الدّعوة أمام اللجنة الملكيّة بضرورة إقامة وطن قوميّ خاصّ باليهود خارج أوروبا، واقترح هرتزل إقامة مستعمرة يهودية خاضعة للتّاج البريطانيّ في شبه جزيرة سيناء أو في قبرص كقاعدة انطلاق لاحتلال فلسطين متى سنحت الفرصة.

وفي نفس العام ١٩٠٢ تمكّن هرتزل من مقابلة أحد أكبر عتاة الاستعمار البريطانيّ جوزف تشمبرلين المعروف بتأييده الشّديد للحركة الصّهيونيّة. وأثناء المقابلة وافق هرتزل على مشروعه لاستعمار قبرص وسيناء تحت العلم البريطانيّ شريطة أن يحظى مشروع استعمار سيناء على موافقة اللورد كرومر المعتمد البريطانيّ في مصر.

ولمّا كان رأي كرومر أن مشروع استعمار سيناء غير عمليّ عرض تشمبرلين على هرتزل فكرة استعمار أوغندا. وعندما عرض هرتزل هذا المشروع على المؤتمر الصّهيونيّ السّادس عام ١٩٠٣. قوبل بأعنف الانتقادات إلى درجة أنّ إحدى العضوات في المؤتمر اتّهمت هرتزل بالخيانة لتخليه عن فلسطين.

لقد كاد مشروع أوغندا أن يشقّ الحركة الصّهيونيّة، والّذي رافقه أيضاً مشروعات أخرى كإقامة الوطن القوميّ لليهود في غينيا كوناكري بحكم غناها بالثّروات المعدنيّة، وكذلك استعمار الأرجنتين وإقامة الدّولة اليهوديّة على أرضها.

ورغم السّماح التّركيّ لهجرة اليهود إلى العراق وسوريا ومنعهم من الهجرة إلى فلسطين إلاّ أنّ المواطن البديلة ماتت مع موت هرتزل في العام ١٩٠٤. وبناء

على ذلك فقد اتّخذ المؤتمر الصّهيونيّ السّابع المنعقد في تموز عام ١٩٠٥ قراراً بالتّخلي عن الجهود الاستعماريّة خارج الأراضي الفلسطينيّة، بعد أن نادت «المنظّمة الاقليميّة الصّهيونيّة» -هي إحدى الحركات المستحدثة أنذاك - بضرورة قبول فكرة إنشاء وطن يهودي مستقلّ في أيّ مكان في العالم.

وبموت هرتزل وضعت الحركة الصّهيونيّة خطّة بضرورة استقدام المهاجرين اليهود من كلّ دول العالم وليس من روسيا وبولندا واوروبا الشّرقيّة والغربيّة فقط، ودفعهم إلى فلسطين للاستيلاء على الأراضي بكلّ الوسائل، وإنشاء المزارع، وإقامة المصانع، والسّيطرة على الاقتصاد بمختلف جوانبه بدعم وتمويل من الأثرياء اليهود من الدّول الاستعمارية في ذلك الوقت.

وفرضت الحركة الصّهيونيّة على اليهود مبالغ تشبه الضّرائب وليس التبرعات، وقامت مجموعات المستوطنين الجدد بتكوين أوّل نواة للحرس اليهوديّ (الهاجاناة) لحماية ما أطلق عليه أنذاك الكيبوتسات. كما أنشأ المهاجرون الرّوس أوّل مستوطنة يهودية بالقرب من مدينة يافا، وأطلق عليها اسم تل ابيب (تلّ الرّبيع) بتمويل من «الصندوق القوميّ اليهوديّ».

كان الحكم العثمانيّ لبلاد الشّام وفلسطين قاسياً، وعبر أكثر من أربعمائة عام لم يبن العثمانيّون مدرسة، أو شقّوا شارعاً في بلاد الشّام، واستعمل النّاس الطّرق الّتي بناها الرّومان أثناء احتلالهم لبلاد الشّام حتّى الآبار الّتي اعتمد عليها الجيش التّركيّ في حركته كانت ممّا حفره الرّومان، كما انّ الاتراك استعبدوا شعوب المنطقة بطريقة أو بأخرى تحت مسمى «الخلافة الإسلاميّة»، وفرضوا الضّرائب الباهظة على الفلّاحين، وشجعوا الاقطاعيين الّذين تقاسموا واياهم الثّروات، كما أنّهم كانوا يجمعون الشّباب الفلسطينيّ، ويلحقونهم

بالجيش التّركيّ الّذي لا فكاك منه إلاّ إذا دفع المجنّد أو أهله خمس ليرات ذهبيّة، وعندما لا يستطيع الفلّاح دفع الضّرائب المقرّرة عليه كان الأتراك يبيعون أرضه في المزاد العلني، وهذا شجع الجمعيّات والأفراد اليهود على شراء الاراضي بثمن بخس.

وكذلك استغلّ الاقطاعيون والأغنياء اللبنانيون أمثال عائلات بسترس، وسرسق، وتويني، ومتّى، وفرح، وسليم خوري هذا الوضع، واستولوا على أراض خصبة في مرج بن عامر وقاموا ببيعها لليهود بمكاسب وسمسرة، وبدأت تتّضح الافكار الصّهيونيّة وتغيّرها من الطّابع الدّينيّ إلى الطابع الاستعماريّ الاستيطاني، وشكّلت عمليّة استملاك الأراضي واقامة المستوطنات الزراعية وطرد الفلاّحين الفلسطينيين من أراضيهم مواجهة مع الصّهاينة، بل ووصل الأمر إلى الصّدام المسلّح عندما هاجم الفلاّحون الفلسطينيون الصّهاينة عام ١٨٨٦ بعد أن أغتصبت قراهم في الخضيرة و«بتاح بتكفا» (ملبس) الّتي ذكرناها، وهذا الصّدام دفع الحكومة التركيّة إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين اليهود بما في ذلك السّياح، وتكرّر الهجوم على قرى يهودية أخرى وللاسباب ذاتها عام ١٨٩٢.

ولم يقتصر العداء للصّهاينة على الفلّاحين فقط، بل انتقل إلى كلّ قطاعات الشّعب، بمن فيهم التّجار والمهنيين، ومعظمهم من المسيحيين العرب الّذين ظهر لهم أنّ اليهود منافسون لهم، بل ومعيقون لعملهم ورزقهم.

ومن نتاج هذا الواقع قام وفد من وجهاء القدس بتاريخ ٢٤ حزيران عام ١٨٩١ بتقديم عريضة لرئيس الوزارة العثمانيّة (الصّدر الاعظم) طالبوا فيها بمنع هجرة اليهود الرّوس إلى فلسطين، وتحريم استملاكهم للأراضي فيها. هذا الأمر أظهر أنّ هذا الموقف ليس ارتجاليّاً بل إنّه ناجم عن وعي ومعرفة مسبقة

بأهـداف الصّهيونيّـة وفكرهـا وتهديدها للوجود العربيّ في فلسـطين. وقد اشـتدّت المقاومـة العربيـة للهجـرة اليهوديّة بعد المؤتمـر الصّهيـونّي الأوّل في بازل.

ولـم يعـدم اليهـود الحيلـة في مواجهـة هـذه المواقـف الجديـدة، فقـد سرّبت الحركـة الصّهيونيّـة العديـد مـن اليهـود إلى «طائفـة الدوغـة» الّـتي تظاهـر أفرادها بالاسـلام، وحملـوا الأسـماء التّركيّـة وانضمـوا تحت لـواء «جمعيـة الاتحّـاد والتّرقي». ويـوم انتـصر الاتحّاديون على السّـلطان عبدالحميد سـنة ١٩٠٨، أوفـد مجلس النّواب ثلاثـة مـن أعضائـه لخلعـه عـن العـرش، وكان أحد هـؤلاء الثلاثـة يهوديّـاً ويدعى «قـرّة حـو أفندي» والّذي سـبق وأن طرده السّـلطان عبدالحميد من مجلسـه في قصر «بلـوز» حـين حـاول التّأثير لإسـكان اليهود في فلسـطين.

بـدأت مقاومـة الهجـرة الصّهيونيّـة تعـمّ كلّ المـدن والقـرى الفلسـطينيّة، ولعبـت الصّحافـة دوراً هامّـاً في توجيـه هذه المقاومـة والمطالبة بعـدم بيع الاراضي لليهـود، وتحّركـت بعـض الشّـخصيّات تطالـب الحكومة التّركيّـة بدور أكـبر للحدّ مـن الهجـرة وتملّـك الأراضي وإغلاق مينـاء يافا في وجـه الهجرة. ولـم يقتصر هذا الموقـف ضـدّ الهجـرة الصّهيونيّـة على الفلسـطينيين، بـل انتقـل إلى سـوريا ولبنان وكذلـك إلى الصّحافـة المصريّـة. ومـما جـاء في كـراس صـادر عـن «الحـزب الوطنيّ العثمانيّ»:

«الصّهيونيّـة هي الخطـر الّذي يحـدّق بوطننـا، وهي الموجة الرّهيبـة الّتي تضرب شـواطىء بلادنـا، إنّهـا مصدر الأعمـال الخدّاعة الغـادرة الّتي تجتاحنـا، والّتي ينبغي أن تكـون أشـدّ إخافـة لنـا مـن السّـير على إنفـراد في ظلمـة الليـل الحالكـة، ولا يقتـصر على ذلـك بـل إنّها نذيـر بنفينا عـن وطننـا، وطردنا مـن بيوتنـا وممتلكاتنا».

وفي العـام ١٩١٢ صـدرت صحيفة «المنـادي»، وكان أوّل عدد لهـا واضح الاتّجاه في محاربـة الصّهيونيّـة، وكتـب محمّـد صالـح الصّمادي الحسـيني في صحيفـة الرّأي العام حـول أخطار الصّهيونيّـة العشرة: فالهجرة اليهوديّة المسـتوحاة مـن الصّهيونيّة تؤدّي إلى:

- **استيطان اليهود في أكثر الاماكن أهمّيّة من حيث التّجارة والوضع الاستراتيجيّ.**
- **بيع أراضي السّكان المحليين ومنازلهم.**
- **فقدان أثمن الأراضي وأعظمها قيمة.**
- **عـودة أمـوال اليهـود إلى جيوبهـم عـن طريـق أماكـن اللهـو ومـا شـابه ذلـك مـن المؤسّسـات الـتّي سـيفتحونها في وجـه العـرب.**
- **إخضاع السّكان المحليين لليهود.**
- **هيمنة المدارس الصّهيونيّة على جميع مرافق التّعليم في البلاد .**
- **استيلاء البنوك والمؤسّسات اليهوديّة على جميع المرافق الصّناعيّة والتّجاريّة في البلاد.**
- **السّيطرة على من يتّصفون بالصّلابة والحزم من الزّعماء العرب.**
- **السّيطرة الاقتصاديّة على فلسطين الّتي منها تنبثق السّيطرة السّياسيّة.**

وتسـابقت الصّحـف العربيّة في فلسـطين وسـوريا ولبنـان بالتّنديـد بالهجرة اليهوديّـة واسـتيلاء الصّهانية على الأراضي، ومن هذه الصّحف: فلسـطين، والقبس، والـرّأي العـام، والكرمـل. وظهـر على أثـر ذلـك «جمعيّـة مكافحـة الصّهيونيّـة» التّي قامـت بتعريـة كّل نشـاطات الصّهيونيّـة وأهدافهـا، بـل وإحصـاء كّل دونـم مـن الأراضي الـتّي ثـمّ الاسـتيلاء عليها ومـن باعها.

الحرب العالميّة الأولى

- **رسائل ماكماهون- الشّريف حسين.**

- **سايكس بيكو.**

- **وعد بلفور.**

في نهايـة عام ١٩١٤ ظهـر واضحـاَ التّحالـف بـين تركيـا وألمانيـا، وكذلـك الاسـتعداد لمشـاركتهما في الحـرب ضـدّ بريطانيـا وروسـيا وفرنسـا، وكان يمكـن لهـذا التّحالـف أن ينتـصر لـو انضمـت إليـه القـوى العربيّـة الخاضعـة لحكـم العثمانيـين في الحجـاز وسـوريا وفلسـطين والعـراق والمغـرب، وخاصّـة بعـد دعوة السّـلطان العثمـانيّ المسـلمين إلى الجهـاد. ولـو تمـت تلبيـة هـذه الدّعـوة لسـببت المشـاكل القويّـة للمسـتعمرين الفرنسـيين والبريطانيـين في مختلـف مناطـق وجودهـم سـواء في الهنـد شرقـاً أو في البـلاد العربيّـة وفي بـلاد المغـرب العـربيّ.

ولهـذا قامـت بريطانيـا بالاتّصـال بالشّريـف حسـين بـن علي أمـير مكّـة المكّرمـة، وذلـك بعد زيارة قـام بها الأمير عبد الله بن الحسـين إلى القاهـرة، ولقائه مـع اللـورد كتشـنر المعتمـد البريطـانيّ في مـصر، وشرح له أوجه الخـلاف بين والده والحكومـة التّركيّـة، وشرح له بـأنّ العـرب يرغبون بالتّحـررّ من الحكـم العثمانيّ.

وهكـذا بدأت الخطـوة البريطانيّة الأولى بضرب العرب والأتـراك معاً، فبعثت الخارجيّة البريطانية رسـالة إلى الشّريف حسـين في مكّـة المكّرمة جاء فيها:

«إنّ بريطانيا تشكر الشّريف على خدماته للأماكن المقدّسة، وسهره على راحة الحجّاج» وأضافت عبارة مثيرة أنهت بها رسالتها بالقول: «أنها لا تعارض في إرجاع الخلافة إلى العرب» .

لاشكّ في أنّ هذه الكلمات تركت أثراً قويّاً لدى الشّريف حسين وضاعفت طموحه... وليس غريباً أن تبدأ الحكومة البريطانيّة بمراسلة الشريف حسين بعد انضمام تركيا إلى الحرب في ٣١ تشرين أوّل/ أكتوبر عام ١٩١٤، ولا شكّ في أنّ الإعدامات المتتالية للوطنيين العرب في كلّ من سوريا ولبنان، والتّي أمر بها جمال باشا، والّذي عرف بلقب «السّفاح»، دون النّظر في طلب الشّريف حسين بالعفو عنهم... وكذلك عندما كشف الشّريف تآمر الحكومة التّركيّة لقتله هو وأفراد عائلته.

حاولت الحكومة البريطانيّة إجراء اتّصالات سريعة بالشّريف حسين، وكثّفت اتّصالاتها من خلال رونالد ستورز (باسم) وزير الحربيّة البريطانيّة ثلاث رسائل لم يردّ الشّريف حسين عليها، لكنّه مع الإلحاح جاء ردّه الأوّل: « ليس في استطاعتي أن أعمل شيئاً قبل أن أستشير العرب وأسألهم رأيهم»، ومن المعروف أنّ رونالد ستورز هو السّكرتير الشّرقيّ لدار الاعتماد البريطانيّة.

كُلّفَ الأمير فيصل بن الحسين للعمل على إيجاد حلّ مشرف مع الأتراك، لكّن التّفُتتَ التّركيّ النّاجم عن مواقف جمال باشا السّفاح وأحمد جمال باشا الذّين أحاطتهم الحركة الصّهيونيّة بالعديد من الجواري اليهوديّات. عملوا ما في وسعهم لعدم تلبية المطالب العربيّة، وكانت ردودهم عنيفة، ولا تحتوي على صيغ تدلّ على الأدب المتعارف عليه مع الشّريف حسين. ولهذا، وفي طريق عودة الأمير فيصل إلى مكّة المكّرمة ماراً بدمشق، التقى قادة «الفتاه» و«العهد»، وحمل

خطّة عمل تضمّنت شروط تعاون العرب مع بريطانيا ضدّ تركيا، وقد عرفت الشّروط «ببروتوكول دمشق» الّذي حدّد فيه الاستقلال العربيّ. ومن ضمن ذلك ورد نصّ في تلك الخطة يشمل إلغاء الامتيازات الأجنبية، وعقد معاهدة دفاع مشترك (تحالف دفاعي) بين بريطانيا والدّول العربيّة.

نال بروتوكول دمشق موافقة الشّريف حسين، وتطابقت أفكاره مع ما ورد فيه. ولهذا وفي تموز يوليو ١٩١٥ بعث الشّريف حسين بمذكرة إلى السّير ماكماهون نائب بريطانيا في مصر، تضمّنت ما ورد في بروتوكول دمشق كأساس للتّحالف بين العرب وبريطانيا ضدّ الأتراك، مضافاً إليه اعتراف بريطانيا بالشّريف حسين كخليفة للمسلمين.

ماطل البريطانيون في الإجابة على مذكرة الشّريف حسين، رغم حاجتهم الماسة للعرب في مواجهة الأتراك، وجاء ردّ هنري ماكماهون خالياً من أيّ موقف، أو على أية من البنود الواردة في مذكرة الشّريف حسين. وبدلاً من ذلك صاغ ماكماهون رسالة مليئة بعبارات المديح والتّملق الجوفاء، وهي سياسة اعتمدها الغرب في مخاطبة الزّعماء العرب، وكأنّ كلمات المديح تغري الزّعيم العربيّ على حساب المبادئ الأساسيّة الّتي يحملها، ولم يحدد ماكماهون في رسالته الموجّهة بتاريخ ١٥/ آب/١٩١٥ أيّة حدود للدّولة العربيّة المطالب باستقلالها.

وكانت حجج ماكماهون أنّ بعض النّقاط المذكورة ضمن الدّولة العربيّة ليست عربيّة بالكامل!، وتوالت الرّسائل المتبادلة بين الشّريف حسين والسّير هنري ماكماهون، والّتي عرفت تاريخيّاً بمراسلات حسين- ماكماهون.

وقد جاءت الظّروف مؤاتية للإنجليز لدفع الشّريف حسين لإعلان

الحـرب على تركيـا بعـد الإعدامـات التّي نفذها جمال باشـا السّـفاح ضـدّ عدد من الوطنيـين العـرب والفلسـطينيين بتاريـخ ٢١/آب/١٩١٥ وبتاريخ ٦/أيـار/١٩١٦،وكان مـن بينهـم علي عمـر النشّاشـيبي من القدس، وسـليم الأحمـد عبد الهـادي، ومحمد الشّـنطي مـن يافا. وعلى إثـر ذلك -وفي الخامس مـن حزيـران ١٩١٦، أعلن الشّريف حسـين ثورته ضـدّ الأتراك.

جـاءت هـذه الأحـداث أثنـاء مراسـلات ماكماهـون، بينمـا كانـت كل مـن الحكومـة البريطانيّـة والفرنسـيّة والحكومـة القيصريّـة في روسـيا تجـري المباحثات والتّرتيبـات للاتفّـاق على تقسـيم تركـة الرّجل المريـض تركيا، وخاصـة منها الأرض العربيّـة، ضاربـة عـرض الحائـط بـكلّ الوعـود الـتّي قطعتهـا بريطانيـا للشّريف حسـين، وقامـت الدّولتـان الأساسـيتّان بريطانيـا وفرنسـا بتقاسـم الأرض العربيّة بينهمـا، لأنّ روسـيا دخلـت في الثّـورة البلشـفيّة بقيـادة لينـين، هـذه الثّـورة الـتّي كشـفت للعـرب عـن المخطـط الذي أعـدّ لهـم باسـم «اتّفاقيـة سـايكس بيكو».

لقـد أظهـر تقسـيم الأرض العربيـة بـين الدّولتـين الاسـتعماريتين بريطانيـا وفرنسـا أهمّيّـة أرض فلسـطين في مشروعهـم، وموقعها المتوسّـط بين آسـيا وأفريقيا لموقعهـا في قلـب العالـم العـربيّ، ولحمايـة الملاحـة في قنـاة السـويس. ولهذا سـعت بريطانيـا لدى عصبـة الأمـم، وحصلـت على تفويـض لانتداب على فلسـطين.

وفي المقابـل بـدأت المنظمـات الصّهيونيّـة تعـدّ العـدّة للاسـتفادة مـن الواقع الجديـد في تقسـيم أراضي الدّولـة العثمانيّـة بعـد انهيارهـا، للحصـول على وثيقـة لتحويـل فلسـطين إلى وطـن قـوميّ لليهـود، واسـتغلّوا العلاقـة الخاصّـة بالحكومـة الألمانيّـة نظـراً لوجـود جالية يهوديّـة كبيرة في ألمانيا تتسّـم بالـثّراء الكبـير، والنّفوذ والتّأثـير على الحكومـة الألمانيّـة لتحقيـق الطّمـوح الصّهيونيّ في فلسـطين، وعملت

الحكومة الألمانيّة على حماية اليهود في تركيا، وسعت لتمليكهم الأراضي في فلسطين. من ناحية أخرى فإنّ القنصليّة الأمريكيّة والسّفارة الأمريكيّة في إسطنبول اجتهدوا في دعم الجهود الصّهيونيّة للاستيطان في فلسطين والهجرة إليها، وقد سرّع كلّ هذا في إعلان الحكومة البريطانيّة (وعد بلفور).

وفي الوقت الذي كان مئات من المحاربين العرب يتساقطون في مواجهة الجيش التّركيّ ابتداء من الحجاز وحتّى شمال سوريا والعراق في سبيل الوفاء والالتزام بالتّحالف العربيّ البريطانيّ ضدّ الدّولة التّركيّة، وفي سبيل إنشاء الدّولة العربيّة المستقلة الكبرى الّتي حددها «بروتوكول دمشق»، كان البريطانيون والفرنسيون والأمريكيون يخطّطون لزرع جسم سرطانيّ في الوطن العربيّ، لمنع قيام أي كيان عربيّ قويّ، وإبقاء السّيطرة على أرض وشعب هذه المنطقة لأمد طويل، وسلخ فلسطين من الجسم العربيّ لصالح المشروع الصّهيونيّ الاستيطاني.

لقد استكان العرب للغة الخداع البريطانيّة، فعندما بعث جمال باشا صيغة اتفّاقية سايكس بيكو للشّريف حسين، من خلال ولده فيصل، لكشف الخداع البريطانيّ الفرنسيّ للعرب أرسل بلفور مذكرة في ٨ شباط فبراير ١٩١٨ إلى الشّريف حسين ينكر وجود مثل تلك الاتّفاقية، ويؤّكد له أنّ ماذكره جمال باشا لم يكن سوى محادثات هامشيّة قبل قيام الثّورة العربيّة. واقتنع الشّريف حسين بأنّه لا توجد هناك اتّفاقيات من وراء ظهر العرب، معتمداً في ذلك على أخلاقه (كشريف)، ومعتقداً أنّ البريطانيين تتوفر لديهم المصداقيّة رغم أنّ تصريح بلفور ووعده لليهود قد سبق ذلك في ٢ نوفمبر ١٩١٧، بينما الاتّفاقيّة البريطانيّة الفرنسيّة -وما سمي باتفاقية سايكس بيكو- كانت في أيار ١٩١٦.

لا شكّ أنّ كّل فلسطينيّ أصبح يحفظ كلمات وعد بلفور عن ظهر قلب،

ونصها: «إنّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قوميّ للشّعب اليهوديّ في فلسطين، وسوف تبذل جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية، وليكن معلوماً أنه لا يسمح بأيّ إجراء يلحق الضّرر بالحقوق المدنيّة والدّينيّة للطّوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن، أو بالحقوق الّتي يتمتّع بها اليهود في البلدان الأخرى وبمركزهم السياسي فيها».

لقد صاغ بلفور وزير خارجية بريطانيا هذه الديباجة أثناء تولّي لويد جورج رئاسة وزراء بريطانيا، وكان كلاً منهما من أخلص خدم الحركة الصّهيونيّة، ويظهر ذلك في توجيه هذا الوعد إلى اللورد روتشيلد الثّريّ الصّهيونيّ المعروف.

إنّ وثيقة «وعد بلفور» تعدّ في الأعراف والقوانين الدّوليّة كافّة، بل وعبر مراحل التّاريخ المختلفة للحروب من أسوأ الوثائق الدّوليّة وأكثرها وقاحة وصلافة، والّتي قيل فيها في حينه عن هذا الوعد المشؤوم: «لقد أعطى من لا يملك لمن لا يستحق». فهذا الوعد يمنح أرضاً لا تملكها بريطانيا إلى مجموعة من الشّذاذ في كّل الأرض، وفي الوقت الذّي كانت فيه الجيوش العربيّة تقاتل إلى جانب بريطانيا ضدّ تركيا أملاً في الحرّيّة والاستقلال. لقد مثّل وعد بلفور هذا أعلى مرتبة من صيغ الخداع السّياسيّ والكذب في التّاريخ الحديث.

الانتداب البريطانيّ على فلسطين

في الحادي عشر من كانون الأوّل ١٩١٧، وبعد أقلّ من ستّة أسابيع من إعلان وعد بلفور، دخل الجنرال اللنبي مدينة القدس بصفته العسكريّة. ودقّت أجراس الكنائس في أوروبا كلّها ابتهاجاً لهذا الحدث، وظهر أنّ العرب الذّين شاركوا بريطانيا وفرنسا في الحرب على تركيا هم الذّين يدفعون الثّمن بالخداع والتّآمر لصالح المشروع الصهيوني الذي سوف يكون المادة الاساس للإنتداب البريطاني.

عندما أذيع وعد جيمس بلفور في ٦ نوفمبر/تشرين الثّاني ١٩١٧ من خلال وكالة رويترز سارعت فرنسا بتأييده، وفي ١٤ شباط (فبراير) ١٩١٨ صدر بلاغ رسميّ في باريس يقول:

«استقبل المسيو ستيفان بشون وزير الخارجيّة السير سوكولوف ممثّل الجمعيّات الصّهيونيّة، فأعرب عن ارتياحه إلى التّضامن المشهود بين الحكومتين البريطانيّة والفرنسّية في قضية توطين لليهود في فلسطين».

وفي ١٩ أيار/مايو/١٩١٨ اتّصل المركيز امبريال سفير إيطاليا في لندن بسوكولون معرباً له باسم ايطاليا عن استعداد إيطاليا لتسهيل العمل الخاصّ باتّخاذ فلسطين مقراً لليهود.

وفي ٣١ أب (اغسطس) ١٩١٨ تقدّم الرّئيس ويلسون صاحب مبادئ حقوق الإنسان الأمريكيّ، فأعرب للحاخام ستيفان وايز أحد قادة الحركة الصّهيّونية

عـن ارتياحـه للنّجـاح الذّي أدركته الصّهيونيّـة، وَعَدَّ ذلك موافقـة ضمنيّة على وعد بلفور.

وفي ٣٠/حزيـران (يونيـو) ١٩٢٢ أصدر الكونغـرس الأمريكي بالإجماع قراره الذّي ينـصّ على: «أن الولايـات المتّحـدة الأمريكيّـة ترغـب في إنشـاء وطـن قـوميّ لليهـود في فلسـطين، على أن يكـون معلومـاً بجلاء، أنّه سـوف لا يكـون هناك أيّ عمـل من شـأنه أن يمسّ الحقـوق الدّينيّة والمدنيّـة للمسـيحيين والطّوائف الأخرى غـير المسـيحيّة في فلسـطين. وهي قريبـة من صيغة وعـد بلفور.

لقـد كان الزّعماء الصّهاينـة متلهّفين إلى تحويل فلسـطين، بأسرع ما يمكن، إلى دولـة يهوديّـة بعـد صدور وعـد بلفـور وردود الفعـل الأوروبيّـة والأمريكيّة، فظهـر هـذا الأمر جليـاً في المقابلة الّـتي تمّت بين الزّعيـم الصّهيـونيّ وايزمن ووزير الخارجيّـة البريطـانيّ جيمس بلفور في الرّابـع من كانـون الأوّل ١٩١٨ في لندن، والتّي كشـف فيها الزّعيـم الصّهيونيّ عـن الطّموحـات الصّهيونيّة، فقال:

«إننّـا نريـد مجتمعاً من أربعة إلى خمسـة ملايين يهوديّ يقيمون في فلسـطين... ومـن هـذا المجتمع يسـتطيع اليهود أن ينـشروا إشـعاعهم في الـشّرق الأدنى... وذلك يفـترض أن يسـبقه تطـوّر حـرّ غـير مقيّـد للوطـن اليهـوديّ في فلسـطين، لا مجـرد مزيـد من التّسـهيلات اللازمة للاسـتعمار».

في هـذه الأثنـاء كان الفلسـطينيون يعتقـدون أنّ ثـورة الشّريـف حسـين سـتحقّق لهـم أمانيهـم في الحرّيّـة والاسـتقلال، ولكـن وبعـد هزيمة تركيـا نتيجة هـذا التّحالـف العربيّ البريطانيّ، بدأ ينكشـف الوجـه الاسـتعماريّ لبريطانيا، وبدأ الشّريـف حسـين يشـهد النّتائج لتلك الثّـورة العارمـة الّـتي قادها الشّـعب العربيّ

مـن الحجـاز حـتّى أنطاكيـة والبـصرة وبغداد وحـتّى يافـا وحيفـا والقـدس... وبدأ يلمـس حجـم الكـذب والخـداع البريطـانيّ ووعودهم!!

بـدأ التّراجـع في المواقـف العربية تدريجيـاً، بعد أن بدأت المعاهـدات والوعود السّريّـة الّـتي قسـمت الوطـن العـربيّ وجزّأته تنكشـف، ومنهـا اتّفاقية سـايكس بيكو ووعـد بلفـور، والهجمة الاسـتيطانية والهجـرة الصّهيونيّة.

لقد أطلق البريطانيون يد الفرنسـيين في سـوريا ولبنـان، وعندما حاول الملك فيصـل المقاومـة والاسـتعانة بالانجلـيز نصحـوه بالخضوع إلى فرنسـا والاستسـلام لهـا... وكلمـا كان الملـك فيصل يوافـق على مطلب فرنـسيّ كانت تقدّم إليـه مطالب أخـرى تحمـل في جوهرها إذلالاً للعـرب، واحتقاراً لحلـم الوحدة والاسـتقلال الّذي لـم يسـتمرّ حتّى أكـثر من أربعة أشـهر.

وعندمـا قـررّ الملك فيصـل مقاومة الفرنسـيين في ميسـلون قام الفرنسـيون بتدمـير جيشـه، ومطاردتـه حتّى حـوران في الجنـوب السّـوريّ، وتّم تسـليمه إنذاراً موقّعـاً مـن الحكومـة السّـوريّة التّي عينتها فرنسـا في دمشـق جاء فيـه: «اخرج من سـوريا!» فغادرهـا، وفي نفـس الوقـت يقف الجـنرال الفرنسيّ غـورو على قبر صلاح الدّيـن ويقـول بصـوت عال: «هـا نحـن عدنـا يا صـلاح الدّيـن». وكذلـك كان الحال بالنسّـبة للعـراق وبقيـة الأراضي العربيـة الـتّي كانت تسـيطر عليهـا بريطانيا بناء على اتفاقيـة سـايس بيكو.

لقـد تّـم تقسـيم الوطـن العـربّي، ففصلـت فلسـطين عـن سـوريا، وكان هذا الانفصـال بنـاء على نصيحـة مـن الوزيـر البريطـانيّ هربـرت صمويـل. وأوفـدت الحكومـة البريطانيّـة مستشـار الملـك فيصـل البريطـانيّ المعـروف (لورنـس)

والذي لقّب بلورنس العرب، يعرض تسديد دين الشّريف حسين على أن يعترف الشّريف حسين بوضع خاصّ للإنجليز في فلسطين، وكذلك يعترف بكلّ وعودهم وعهودهم فيها، وبالطبع في المقدمة منها وعد بلفور، إلّا أنّ الشّريف حسين رفض هذا العرض بعد أن اكتشف غدر البريطانيين، وبعد سيطرة السعوديين على الحجاز وانهيار أخر مواقع للشّريف حسين، لجأ إلى العقبة وبقي فيها.

لكنّ الأمر لم يتوقف عند ذلك، بل طلبت بريطانيا من الشّريف حسين مغادرة مدينة العقبة وبلاد الحجاز، ولم تعد المخاطبة الّتي صيغت من خلال ماكماهون واردة في المخاطبة، والتّي كانت تقول «إلى السّيدّ الحسيب النّسيب سلالة الأشراف، وتاج الفخار، وفرع الشّجرة المحمّديّة، والدّوحة الأحمدّية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السّامية، السّيّد ابن السّيّد، والشّريف ابن الشّريف، الشّيخ الجليل المبجّل دولة الشّريف حسين سيّد الجميع، أمير مكّة المكرّمة، قبلة العالمين، ومحطّ رحال المؤمنين الطّائعين، عمّت بركته النّاس أجمعين».

وتمّ نفي الشّريف حسين إلى قبرص... ومحاولة إذلاله لعدم تجاوبه مع الإنجليز بشأن فلسطين فلقد كان موقفه أقرب إلى موقف السّلطان عبد الحميد، ولهذا تقرّر معاقبته بالنفّي والإهانة.

الانتداب البريطانيّ وتسليح اليهود

وقعت فلسطين كلّها تحت الاحتلال البريطانيّ في نهاية العام ١٩١٨، وقامت سلطات الاحتلال البريطانيّ بفصل فلسطين عن سوريا الّتي وقعت تحت الاحتلال الفرنسيّ بناء على اتّفاقية سايكس بيكو بين بريطانيا وفرنسا، وبدأت السّلطات البريطانيّة أولى خطواتها في تنفيذ وعد بلفور وتمكين الصّهاينة من تنفيذ برنامج التّهويد، والذّي يتلخّص في فتح باب الهجرة لليهود من جميع أنحاء العالم، ممّا يعني الاستيلاء على الأرض الفلسطينية لتمكين المهاجرين اليهود من تنفيذ هذا البرنامج وتقديم الدّعم والتّسهيلات لهم.

ولذلك طالبت القيادة الصّهيونيّة بأن تكون بريطانيا هي الدّولة المنتدبة على فلسطين، وأعلن وايزمن في مؤتمر الصّهاينة الإنجليز عام ١٩١٩ بالاستعداد للرّحيل إلى فلسطين للعمل على تهجير مليون يهوديّ إليها، بعد أن أعلن: «أنّ هدفنا لا يزال الدّولة اليهوديّة في فلسطين، ولكنّ بلوغ هذا الهدف لا يأتي دفعة واحدة، بل يجري على مراحل متعدّدة، وأوّل هذه المراحل أن توضع فلسطين تحت حماية دولة صديقة كبريطانيا، لتسهيل الهجرة والاستيطان لليهود، ولتحضير الجهاز الإداريّ اللازم لبلوغ هدفنا، وأنّ الحكومة البريطانية موافقة على هذه الخطّة، ومستّعدة لتسهيل تنفيذها».

وفي مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ وما سمّي بمؤتمرالصّلح الذي جاء بعد اقتسام منطقة الشّرق العربيّ بين بريطانيا وفرنسا أبرقت اللجان القوميّة لحزب العمال البريطانيّ في ٢٢/نيسان/ابريل ١٩٢٠ إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا

الموجـود انـذاك في سـان ريمو في المؤتمـــر العالـميّ للصّلح، وطالبوه باسـم المعارضة أن تقبـــل حكومته الانتداب على فلسـطين.

ورغـم أنّ صـكّ الانتـداب على فلسـطين لـم يـبرم إلّا فيمـا بعد وبقـرار من عصبـة الأمـم، إلّا أنّ السّـلطات العسـكريّة البريطانيّـة أصـدرت أوامرهـا منـذ نيسـان١٩١٨ بتسـهيل تحـرّكات اللجنـة الصّهيونيّـة الّتي وصلت فلسـطين برئاسـة وايزمـن، والّـتي بدورهـا فتحـت أبـواب فلسـطين للهجـرة اليهوديّـة، بينمـا فرض الحصـار على الشّـعب الفلسـطينيّ وقطعـت اتّصلاته مع الشّـعب العربيّ في سـوريا، وبـدأت حملـة تجفيـف امكانياتـه الماديّـة، ومصـادرة أسـلحته، وأصبـح الواقـع الاقتصـاديّ يحـاصر الفلّاحـين بحيـث لم يعـد لمنتوجاتهـم أيّة قيمـة ماديّـة، فهاجر العديـد منهـم إلى المدن، وتركـوا أراضيهم الّتي أصبح من السّـهل الاسـتيلاء عليها. ومـن ناحيـة أخـرى بـدأت عمليّة تسـليح المهاجريـن اليهـود إلى فلسـطين إضافة لوجـود كتائـب يهوديّـة مسـلّحة ضمـن الجيـش البريطانيّ.

لقـد بـدأت تتّضـح الأهـداف والخطـط التّنفيذيـة الصّهيونيّـة في فلسـطين، والتّسـهيلات الـتّي تقـوم بهـا القـوات الإنجليزيّـة لتحقيـق هـذه الأهـداف أمـام قطـاعات الشّـعب الفلسـطينيّ الذّي بـدأ يناضـل أمـام هـذه الهجمـة وبـدون أيّـة إمكانـات عسـكريّة أو مادّيّة متعادلة مـع الامكانات الّتي تدعمها قوات الاسـتعمار (الانتـداب) البريطـانيّ الّـتي أصبحـت تتضاعـف قوتهـا يومـاً بعـد يوم.

الثّورات والانتفاضات الفلسطينيّة

الثورة الأولى -ثورة نيسان / ابريل ١٩٢٠

مـع انهيـار الوجود الـتّركيّ في بلاد الشّـام وبدايـة الاحتلال البريطـانيّ لأرض فلسـطين، بـدأت المقاومـة الفلسـطينيّة لموجـات الهجـرة اليهوديّـة لفلسـطين وفي مواجهـة الاحتـلال الجديـد، مـن قبـل مجمـوعات مـن الشّـباب وأبنـاء القـرى والفلاّحيـين، بينما كان الاقطاعيّـون والأثرياء يحاولون إيجاد صيغة تفاهم مشـتركة مـع البريطانيـين، رغـم رفضهم للهجـرة اليهوديّة إلى فلسـطين، وبدأ الفلسـطينيون تشـكيل تجمعاتهم النّضاليّة ومنها الجمعيات المسـيحية الاسـلامية والمنتدى الأدبي، والنّـادي العربيّ، ونادي الاخـاء والعفاف ومنتـدى آل الّدجاني، وجمعيّـة «الفدائيّة» وهـذه الجمعيـة هي فدائيّـة سّريّـة كانـت تضـمّ عـدداً من رجـال البوليـس والدّرك الفلسطينيين.

كانـت هـذه الجمعيـات تعـدّ العـدّة للانطـلاق بثـورة شـاملة، ولهـذا قامت بتسـليح أعضائها بالأسـلحة الخفيفـة، وكانت تعدّ القوائم بأسـماء اليهـود البارزين والعنـاصر الموالـية للصّهاينة، وتبـثّ الدّعايـة الإعلامية عبر الصّحف الفلسـطينيّة ضـدّ الصّهاينـة والهجـرة اليهوديّـة، ودفعـت بعـدد مـن المتعلّمـين مـن أعضائهـا لتعلّـم اللغـة العبريّـة لمعرفـة مـاذا تكتب الصّحـف العبريّـة، وما يقـول اليهود في منتدياتهم.

وأصبـح واضحـاً بداية مـن عام ١٩٢٠ أنّ الأمـور تدفع باتّجـاه انفجار مناهض

للصّهيونيّة... ففي السّابع والعشرين من شباط ١٩٢٠ جرت مظاهرة عربيّة في القدس تندّد بالهجرة اليهوديّة، وتدعو لتجديد وحدة فلسطين وسوريا.

ففي الثّامن من آذار ١٩٢٠ جرت مظاهرة ثانية، وكانت هتافات المتظاهرين تركّز شعاراتها ضدّ اليهود، وفي الأوّل من آذار شنّت مجموعتان من الفلسطينيين المسلّحين هجومين على المستوطنات اليهوديّة الواقعة بالقرب من الحدود اللبنانيّة السّوريّة، وهما المطلّة وتلّ حي، وقد قتل في هذين الهجومين الكابتن جوزيف ترامبلدور وهو عسكريّ صهيونيّ بارز، ومستوطنون آخرون.

وفي الحادي عشر من آذار سنة ١٩٢٠ صدر عن الادارة البريطانيّة وبضغط من الصّهاينة أمر بحظر القيام بالمظاهرات، ممّا زاد من حدّة الاحتقان ضدّ اليهود لدى الفلسطينيين، ومع اقتراب موعد عيد الفصح، ومصادفة موعد الاحتفالات الدينيّة للمسيحيين واليهود وموعد احتفالات المسلمين (موسم النّبي موسى) الذّي تتقدّم خلاله جماهير غفيرة من قرى القدس ومن مدن فلسطينيّة أخرى الأعلام والرّايات، وذلك في الرّابع من ابريل/ نيسان ١٩٢٠ اعترضهم بعض اليهود محاولين خطف العلم العربّي وإهانة حامله.

استمرّت الانتفاضة من الرّابع من نيسان ١٩٢٠ وحتّى العاشر منه رغم اعلان الأحكام العرفيّة، وصدر بلاغ بريطانيّ أنّ القتال أسفر عن موت تسعة من اليهود، وأربعة من العرب، و(٢٥١) جريحاً إصابة (٢٢) منهم خطرة. وعلى إثر ذلك نشأت وحدات يهوديّة «للدّفاع الذّاتّي» الهاغاناة التّي شكّلها جابوتنسكي، وكانت تتدّرب بصورة علنيّة وراء مدرسة وفوق قمة جبل الزّيتون.

وعلى إثر ذلك، وفي الحادي والثّلاثين من ايّار١٩٢٠ في أعقاب تعيين هربرت

صموئيل اليهوديّ البريطانيّ حاكماً مدنيّاً ومندوباً سامياً لفلسطين، شرع في تشكيل جهاز يهوديّ وتعيين نورمان بنتويتش اليهوديّ سكرتيراً قضائياً (نائباً عاماً)، يتولى وضع القوانين وسنّ التّشريعات اللازمة لفلسطين. وفي عهده سنّت مئات من القوانين العسكرية الّتي حدّتْ من نشاط العرب، وسهّلت هجرة اليهود لفلسطين، وبدأ العمل لتهويد أجهزة الحكم في فلسطين، هيئة الحكومة ودائرة الخزينة، ودائرة الشّرطة (البوليس) فمعظمهم من اليهود، كما تقرّر اعتبار اللغة العبريّة لغة رسميّة بالإضافة إلى اللغتين العربيّة والانجليزيّة.

وفي نفس التّاريخ الحادي والثّلاثين من أيار ١٩٢٠ اجتمع عدد من الشّخصيات الوطنيّة الفلسطينيّة في النّادي العربيّ بدمشق، واتّفقوا على تأسيس «الجمعيّة الفلسطينيّة العربيّة» برئاسة الحاج أمين الحسيني، وضمّت في عضويتها عزّت دروزة، وعارف العارف، وحثّت الجمعيّة كلّ الجمعيّات والنّوادي الفلسطينيّة للتّوحّد والتّصدّي لموجات الهجرة اليهوديّة، كما أعلنت رفضها لقرار مؤتمر سان ريمو الذّي منح بريطانيا الانتداب على فلسطين، وتعيين صموئيل مندوباً سامياً عليها.

لقد بدأ صموئيل تنفيذ خطّته بإفراغ الأراضي الفلسطينيّة من أهلها، وأصدر القوانين الّتي تجيز لها الاستيلاء على الأراضي غير المسجلة في الطّابو وتسليمها لليهود. ولذلك فرض الضّرائب الباهظة على الفلسطينيين.وهكذا وجد الشّعب الفلسطينيّ نفسه محاطاً بالأعداء من كلّ جانب، وفي نفس الوقت انهار حكم فيصل في سوريا.

المؤتمرات الوطنيّة الفلسطينيّة

عقد المؤتمر الوطنيّ الفلسطينيّ الأول في ٥/ اذار - مارس ١٩١٩، وقد شارك فيه مندوبون عن المدن الفلسطينيّة والقرى والعشائر، وصدر عنه إعلان يؤكّد على رفض الانتداب البريطانيّ، ووعد بلفور، والهجرة اليهوديّة. وأكّد على أنّ فلسطين هي جزء من سوريا... وتمّ انتخاب لجنة تنفيذيّة أولى تتولى تنفيذ قرارات المؤتمر، وتقوم بمراجعة السّلطات البريطانيّة بشأنها، وبهذا نشأ أول تشكيل سياسي فلسطيني لقيادة الحركة الوطنية.

لكنّ سلطات الاحتلال البريطانيّ لم تعر أيّ اهتمام لهذه اللجنة، ومضت قدماً في مخططّاتها الأمر الذّي أدّى إلى الدّعوة للمؤتمر الوطنيّ الفلسطينيّ الثّاني في شباط/فبراير١٩٢٠، لكن السّلطات البريطانيّة منعت انعقاد المؤتمر، وأصدرت قرارات تمنع التّظاهر، وحركتّ قواتها العسكريّة، وكذلك فرضت رقابة على الصّحف.

وبعد أن احتلّت القوات الفرنسيّة كلّ الاراضي السّوريّة، وقامت بطرد الملك فيصل حتّى آخر نقطة تواجد فيها حوران، تمّ عقد المؤتمر الوطنيّ الفلسطينيّ الثّالث في كانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٢٠. ولم تستطع السّلطات البريطانيّة منع انعقاده، وكرّر المؤتمرون مقرراتهم الصّادرة عن المؤتمر الأوّل، وتشكّلت حكومة وطنيّة فلسطينيّة، وأبرقوا إلى مجلس العموم البريطانيّ ومجلس اللوردات وعصبة الأمم بتلك المطالب، لكنّهم لم يجدوا آذاناً صاغية أو أيّ اهتمام.

وفي حزيران / يونيو ١٩٢١ عقد المؤتمر الرّابع، وخلاله تمّ تشكيل وفد فلسطينيّ للسفّر إلى لندن من أجل التّفاوض مع الحكومة البريطانيّة مباشرة حول مواقفهم.

قام الوفد بالاتّصال بالعديد من الجهات الرسمية والاعلامية، ورغم التّعاطف الذّي أبداه أعضاء مجلس اللوردات إلّا أنّ الحكومة البريطانيّة استمرّت في تنفيذ برنامجها... وقد كان الوفد العربيّ يمثل ٩٤٪ من سكان فلسطين، ولم يكن اليهود يمثلون آنذاك أقل من ٦٪ من عدد السّكان. ورغم ذلك فإنّ وزير المستعمرات تشرشل أنذاك طلب من الوفد العربيّ لقاء وايزمن، والتّفاوض معه والّذي أعلن أنّه على استعداد لمفاوضة الوفد العربيّ شريطة ألّا يناقش الوفد وعد بلفور أو المساس به.

وفي هذا الوقت الّذي كان فيه الوفد الفلسطينيّ في لندن، وبعدّ لقاء وزير المستعمرات تشرشل، وصلت برقية منه إلى المؤتمر الصّهيونيّ المنعقد في بكرلسباد يدعو فيه لنجاح المؤتمر بإقامة وطن قوميّ لليهود في فلسطين، وهو نفس المؤتمر الّذي كان قد أعلن عالمياً أنّه قرّر إنشاء فرقة يهوديّة مسلّحة للدّفاع.

في هذه الأثناء كان البريطانيون يعدّون لما يسمى بالكتاب الأبيض البريطانيّ عام ١٩٢٢، الذّي أعدّه الصّهيونيّ البريطانيّ هربرت صموئيل، وتبنّاه تشرشل لصالح الحركة الصّهيونيّة واليهود.

استمرّ الفلسطينيون في عقد مؤتمراتهم، وكان آخرها المؤتمر الّذي عقد في القدس ٢٠ / حزيران- يونيو ١٩٢٨ وفي هذا المؤتمر تقدّم المؤتمرون بطلبات

جديـدة تتلخـص في: حكومـة نيابيّـة فلسـطينيّة، الحدّ مـن الموظّفـين البريطانيين، والاحتجـاج على منـح امتيـاز البحـر الميـت لشركـة يهوديّـة، والمطالبـة بوقف سـنّ القوانـين العسـكرية قبـل تشـكيل الحكومة الفلسـطينيّة.

لقـد تواصلـت انتفاضـات الفلسـطينيين في وجـه السّياسـة البريطانيّـة، وموجـات الهجـرة اليهوديّـة، ودعـم تسـليح الحـركات الصّهيونيّـة.

وفي عام ١٩٢٨ وبعـد انتهـاء المؤتمـر الصّهيونيّ الأوّل أعلن جابوتنسـكي زعيم الحـزب اليهوديّ الإصلاحيّ الدّعوة لتسـليح اليهود، وسـلوك طريـق العنف لتحقيق أهدافهـم، ممّا شـكّل دعـوة وتشـجيعاً لليهود الّذين خرجـوا للمطالبة بحائـط البراق، وسـاروا في مظاهـرات في ١٥/اب/١٩٢٨ رافعـين الأعـلام اليهوديّـة ولافتـات تقـول «الحائـط حائطنـا»، ومرددين الأناشـيد الصّهيونيّة.

فبـدأت مرحلـة جديـدة مـن الـصّراع مـع اليهـود، انحـازت خلاله سـلطات الانتـداب البريطـانيّ إلى اليهـود ودعمهم، فقـام الميجر سـاندرس البريطـانيّ بتوزيع السّـلاح على اليهـود، وجنّـد بعضهـم في الفـرق النّظاميّـة البريطانيّة.

ثورة عام ١٩٢٩

تضاعفت حدّة التّوتر بعد قدوم مجموعة من المتطرّفين الصّهاينة من تل أبيب واختراقهم شوارع القدس منشدين النّشيد القوميّ الصّهيونيّ/ الهاتكفا، ورافعين صوتهم بالشّتائم على العرب الفلسطينيين. هذا الأمر رفع وتيرة التّوتر، ممّا دفع مجموعات من القرى المجاورة للقدوم إلى القدس لتقديم الدّعم لسكانها وخاصّة بعد الأحداث الدامية للأسبوع الأخير من آب ١٩٢٨.

أصبح من الواضح أنّ جميع محاولات الاستفزاز اليهودية منذ الخامس عشر من آب من قبل اليهود، كانت تهدف للإعداد لشنّ هجوم على حائط البراق... ولهذا تدفّق المئات من سكان القرى المجاورة للقدس من العيزريّة، وأبوديس، والطّور، وسلوان، والمكبر، وبيت حنينا، وشعفاط، وغيرها متوجّهين إلى المسجد الأقصى يوم الجمعة في ٢٣ آب ١٩٢٩، وكانوا مسلّحين بالمسدّسات وبالهروات والعصي.

حاول بعض الجنود والضّباط البريطانيون سحب هذه الأسلحة من العرب الفلسطينيين... لكنّ الأعداد المتدفقة أرعبت الجنود، فتوقفوا عن محاولاتهم، واستدعت القيادة البريطانيّة قوات دعم من الرّملة بلغ تعدادها اكثر من ٧٠ شرطيّاً. ورغم الهدوء الّذي فرض على شوارع القدس المحيطة بالمسجد الأقصى، إلّا أنّ إطلاق النّار استمرّ على الضّواحي اليهوديّة خارج القدس.

وانتقلت الأخبار إلى مدينة نابلس والخليل وغيرها، فانطلقت مظاهرات حاشدة في هذه المدن، وقتل أحد اليهود في مدرسة يهوديّة في الخليل، وفي اليوم

التّالي قام رجال الخليل بهجوم على الحيّ اليهوديّ في الخليل فقتلوا أكثر من عشرين يهوديّاً، وجرحوا أكثر من خمسين منهم.

أمّا في نابلس فقد هاجم سكان المدينة أحد مراكز البوليس في محاولة للإستيلاء على الأسلحة فيه، وشنّ العرب هجوماً على اليهود في بيسان.

وفي يافا قام الفلسطينيون بالهجوم على عدّة مستعمرات يهوديّة. وفي ٢٦/ اب/ ١٩٢٩ شنّ العرب هجوماً على المستعمرات البعيدة نسبياً عن يافا، ودمروا ستّ مستعمرات تدميراً كاملاً. وفي حيفا هاجم العرب اليهود في الحيّ المعروف حي هادارها كرمل، لكنّ اليهود استهدفوا المساجد في ردّهم، فهاجمت مجموعة من اليهود الحيّ الواقع بين تل أبيب ويافا، وقتلوا إمام المسجد وستّة أخرين أثناء الصّلاة. وفي ٢٦/ آب وقع هجوم يهوديّ آخر على مسجد عكاشة في القدس وهو من أقدم مساجد القدس وله مكانة خاصّة لدى المسلمين لوجود أضرحة للأنبياء في صحن المسجد.

وفي التّاسع والعشرين من آب شنّ العرب هجوماً على الحيّ اليهوديّ في صفد حيث سقط ٤٥ يهودياً بين قتيل وجريح، وأضرمت النيران في بيوتهم ومحالهم التّجاريّة.

وفي هذه الثورة قتل (١٣٣) يهودياً وجرح (٣٣٩)، بينهم (١٩٨) إصابة بالغة، أمّا العرب فقد بلغ عدد القتلى (١١٦) فرداً و (٢٣٢) جريحاً.

لقد كان واضحاً أنّ تسليح الانتداب البريطانيّ لليهود كان يجري على قدم وساق، أمّا العرب فقد كانت تسحب من أياديهم حتّى السّكاكين، وعلى إثر هذه الثورة انطلقت المظاهرات في سوريا وفي بعض مناطق وجود العرب في أمريكا.

ولحصار هذه الثّورة تمّ التّنسيق بين فرنسا وبريطانيا، فتّم التّشديد على المناطق الحدوديّة لمنع أيّة معونات تصل إلى الفلسطينيين من سوريا، وفي نفس الوقت كان الجيش البريطانيّ وطائراته يقومون بمهاجمة التّجمعات العربيّة، وقتلت ٢٤ فلسطينيّاً في ليلة ٣ /ايلول/ سبتمبر ١٩٢٩. وبهذا يكون الجيش البريطانيّ قد وقف بشكل سافر مع اليهود واعتداءاتهم، وتوّج ذلك بمهاجمة المندوب السّامي للفلسطينيين، واتهامهم بالاعتداءات على اليهود، فتحداه الفلسطينيون في ردّ واضح يقول: «اطّلع عرب فلسطين بدهشة عظيمة على منشورات فخامتكم الصّادر في أيلول -سمبتبر- ١٩٢٩، ولم يكن أحد منهم يتوقع أن لا يرى الحقائق الّتي عرفها القاصي والدّاني، والّتي اعترفت بها الحكومة، وهي:

١- **إنّ أكثر اليهود كانوا مسلّحين.**

٢- **إنّ حكومة الانتداب البريطانيّ سلّحت عدداً كبيراً منهم.**

٣- **إنّه لا يوجد بين قتلى اليهود أيّ تمثيل أو تشويه حتّى في الخليل، كما تؤيّد هذا التّصريح إدارة الصّحة العامة البريطانيّة في فلسطين.**

٤- **إنّ اليهود قد مثّلوا ببعض القتلى من العرب.**

٥- **إنّ جموع اليهود قد قتلت نساءً وأطفالاً من العرب.**

٦- **إنّ اليهود هم الذّين بدأوا قتل النّساء والأطفال والرّجال من العرب في فراشهم في قرية صورباهر وغيرها.**

٧- **إنّ اضطرابات فلسطين السّابقة والحالية إنّما هي نتيجة مباشرة للسيّاسة البريطانيّة الصّهيونيّة، الّتي ترمي إلى افناء القوميّة العربيّة في وطنها الطّبيعيّ، لكي تحلّ محلها قوميّة يهوديّة لا وجود لها... الخ.**

لقد أوضحت ثورة عام ١٩٢٩ حقائق جديدة أمام الشّعب الفلسطينيّ وهي أنّ الهجرة اليهوديّة والنّشاط الصّهيونيّ وفكرة إنشاء وطن قوميّ لليهود في فلسطين يعتمد على القّوة العسكريّة البريطانيّة، ومن أجل التّخلّص من هذا الواقع يجب محاربة الصّهاينة والبريطانيين بكلّ الوسائل.

لقد أصبح واضحاً أنّ القيادة الفلسطينيّة ممثلّة باللجنة التّنفيذيّة المشكلّة من رؤساء العشائر ورجال الأعمال والإقطاعيين الّذين كانوا يحرصون على مصالحهم الشّخصيّة، والمؤتمرات السّبعة الّتي عقدت ليست إلّا شكلاً هلاميّاً لم يقدم للجماهير الفلسطينية شيئاً، بل كانت تهادن قوات الاحتلال البريطانيّ، وإن كانت لا توافق على الهجرة الصّهيونيّة أو الاعتراف بجمعيّات اليهود.

إن التّحريض الصّهيونيّ للمندوب السّامي والادّعاء بأنّ هناك مجازر ضدّ اليهود، كما أنّ التّمثيل بجثث القتلى رغم التّأكد من عدم صحة ذلك، دفع المندوب السّامي لإعطاء الأوامر لاعتقال المئات من الفلسطينيين، وفرض الغرامات الماليّة الكبيرة عليهم.

لقد بلغ عدد الّذين صدرت عليهم أحكام (٧٩٢) فلسطينيّاً، وعدد الّذين صدرت أحكام بإعدامهم (٢٠) مناضلاً، والّذين حكموا بالسّجن المؤبّد (٢٣) مناضلاً، بالإضافة إلى (١٨٧) عربياً حكموا بالسّجن بين ثلاثة أعوام وخمسة عشر عاما، و كانت الغرامة الماليّة تصل إلى ١٢٠٠٠ جنيه فلسطينيّ لمن هم من مدينة الخليل وصفد.

ولأوّل مرّة تمّ نفي العديد من الشّبان المناضلين من أماكن إقامتهم إلى مدن أخرى؛ فمثلاً تمّ إبعاد عدد من شبان يافا إلى النّاصرة، وعدد من شبان

حيفـا أبعـدوا إلى صفـد، وكذلك إلى جنـين، وتمّ ملاحقـة العديديـن وحرمانهم من أعمالهـم. وإذا كان قـد صـدر حكـم الإعـدام بحقّ عشريـن فلسـطينياً، فقد صدر حكـم واحـد بالإعـدام ليهـوديّ كان اسـمه جانكـيز وكان شرطيّـاً في البوليـس البريطـانيّ، دخـل بسـلاحه على عائلـة مكونـة مـن سـبعة أفـراد فقتلهم جميعـاً، ثمّ خفـض حكـم الإعـدام إلى مؤبّـد، وخفّـض ثانيـة إلى خمسـة عـشر عامـاً، وأطلق سراحه بعـد فـترة قصيرة.

الثّلاثاء الحمراء

حـاول رجـال اللجنـة التّنفيذيّـة اللجـوء إلى القيـادة البريطانيّـة لتخفيـف حكـم الإعـدام الّذي صـدر بحـقّ الأبطـال الثّلاثّـة: فـؤاد حجـازي، وعطـا الزير، ومحمّـد جمجـوم، ولكـنّ محاولاتهـم ذهبـت أدراج الرّيـاح.

لقـد أظهـر الأبطـال الثّلاثـة شـجاعة نـادرة، فقـد كانـوا يتسـابقون إلى حبل المشـنقة مؤمنين أنّهم شـهداء، وقد صّـور قصّة إعدامهم الشّـاعر الفلسـطينيّ الثائر إبراهيـم طوقـان في قصيدتـه المشـهورة «الثّلاثـاء الحمـراء»، وخضّب محّمـد جمجوم وعطـا الزّيـر أياديهمـا بالحنّـاء كشـكل مـن أشـكال الإبتهـاج والتبّريـك في الأفراح، حيـث يكـون الحنـاّء في الأعـراس هـو التّعبـير الأكـبر للفـرح، وتسـابق الاثنـان إلى حبـل المشـنقة وسـبق عطـا الزّيـر... وانطلقـت المـآذن بالتّكبـير والآذان في تلك اللحظـات، وانطلقـت أجراس الكنائس، وزغردت نسـاء الخليل للشّـهداء، وبكتهم عيـون الرّجـال في كلّ أرض فلسـطين من شـمالها إلى جنوبها مسـلميها ومسـيحييها.

لقـد أصبـح يـوم الثّلاثـاء السّـابع عـشر مـن حزيـران / يونيـو ١٩٣٠ يـوم الشّـهداء/ يـوم الفـداء الفلسـطينيّ؛ فـفي السّـاعة الثّامنة نفـذّ الحكم في الشّـهيد فـؤاد حجـازي مـن صفـد، وفي التّاسـعة نفـذّ الحكـم في الشّـهيد عطـا الزّيـر من الخليـل، وفي العـاشرة نفـذّ الحكم في محمّد جمجـوم من الخليل. ومنـذ ذلك التّاريخ وحـتّى اليـوم يذكر كلّ فلسـطينيّ، بكلّ الألـم، والعدوان والطّغيـان والظّلم عظمة الشّـهادة والشّـهداء الذيـن دخلـوا إلى قلـب فلسـطين رمـوزاً للتّضحيـة والعطاء... ويـردّد الفلسـطينيون قصيدة الشّـاعر الفلسـطينيّ إبراهيـم طوقان:

تقول السّاعة الأولى:

أنــا ســاعة النّفــس الأبيــةّ الفضــل لي بالأسبقيّــــة
أنــا بكــر ســاعات ثــلاث كـــلّها رمــــز الحميّــــة
قســماً بروحــك يــا فـــؤاد صعــدت جوانحهــا زكيّــة
عاشــت نفــوس في ســبيل بلادهــا ذهبــــت ضحيّــة

السّاعة الثّانية

أنــا ســاعة المــوت المــشرّف كلّ ذي فعـــل مجيـــــد.
بطلــــي يحطّـــــم قيـــــده رمــزاً لتحطيــم القيـــــود.
قســماً بـــــروح محـــــمّد تلــقى الّــردى حلــو الــورود.
قســماً بأمّــك عنــد موتــــك وهي تهتـــــف بالنّشــيد.
مانــال مــن خـــدم البــــلاد أجــلّ مــن أجــر الشّــهيد.

السّاعة الثّالثة

أنـا ســاعة الرّجـل الصّبــور انـا سـاعة القلــب الكبيـــــر.
بطـلي أشـدّ على لقـاء المــوت مـــن حمــــــم الصّـــــخور.
يلـقى الاله مخضّب الكـــفّين فـــــي يــــــوم النّشـــــور.
قسـماً بروحــك يـا عـــطاء وجنّـــــة المـــلك القديـــــر.
وصـــــغارك الأشبـــــال تبكــي الليـث بالدّمــع الغزيـــر.
ما أنـــقذ الـــوطن المـــدّى غيـــــر صبّـــــار جســـور.

تصاعدت حدّة الصّراع بين الفلسطينيين واليهود وسلطة الاحتلال البريطانيّ عبر العشر سنوات الممتدّة من العام ١٩٢٠ حتّى العام ١٩٣٠، ووصل الأمر إلى حدّ التّفكير باعتماد العمليّات العسكريّة ضدّ جيش الاحتلال البريطانيّ والصّهاينة، وبدأت بوادر تشكيل ألوية مسلحة، وبدأ البريطانيون يشعرون بالقلق وخاصّة بعد توارد الأنباء عن تهريب كميّات من الأسلحة الخفيفة إلى فلسطين عبر البوابة السّوريّة الفلسطينيّة والأردنيّة الفلسطينيّة، كما وردت معلومات عن احتمال استعدادات قويّة لمتطوّعين عرب من لبنان وسوريا والأردنّ، وهم في حالة جاهزيّة إذا ما نشبت أيّة ثورة.

هذا الأمر دفع بالحكومة البريطانيّة لدعوة المهاجرين اليهود وأعضاء اللجنة التّنفيذيّة العربية وأبناء العائلات الإقطاعيّة وشيوخها لتهدئة الأوضاع، كما صدر في لندن في تشرين الأوّل / اكتوبر/ ١٩٣٠ ما سمي بالكتاب الأبيض باسم تشرشل، وظهر فيما بعد أنّ الذّي صاغه هو هربرت صموئيل المندوب السّامي السابق. وقد ورد في هذا الكتاب شرحاً لموادّ صكّ الانتداب، والتّي هي في مجملها لصالح اليهود، لكنّها في نفس الوقت تحاول إرضاء الفلسطينيين لغويّاً، وليس فعليّاً مع الاحتفاظ بتنفيذ الوعود المقطوعة للصّهاينة.

وبعد عشرين يوماً فقط على صدور الكتاب الأبيض في ٤/ تشرين الثّاني/ نوفمبر ١٩٣٠ أعلن وزير المستعمرات تشرشل عن معارضته للكتاب الأبيض، وأرسل كتاباً إلى جريدة الشمس جاء فيه: «انّه ليس في نيّة بريطانيا إيقاف الهجرة إلى فلسطين، وأنّ هجرة اليهود سوف لا تتأثّر بزيادة العاطلين عن العمل من العرب».

واعتبر العرب أنّ هذا التّصريح هو «الكتاب الأسود»، وظهر واضحاً ترابط

السّياسة الصّهيونيّة بالمخطّطات والسّياسات البريطانيّة الّتي أدّت إلى زيادة حجم الهجرة اليهوديّة، وتسليم الأراضي الأميريّة في فلسطين للمهاجرين اليهود.

وعلى إثر ذلك انطلقت المظاهرات في كلّ المدن والقرى الفلسطينيّة، وصعَّد الجيش البريطانيّ من وسائل القمع، واعتقل المئات من الفلسطينين، وفي هذه الأثناء تداعى المسلمون لعقد مؤتمرهم في القدس. وفي ليلة الإسراء والمعراج في ٤/ كانون الأوّل / ١٩٣١ انعقد المؤتمر الإسلامي الأول الّذي حضره مندوبو أكثر من ٢٢ بلداً، وساهم فيه العشرات من العلماء والمفكرين والزّعماء، ونادى المؤتمر بمقاطعة البضائع الصّهيونيّة وبوقف الهجرة اليهوديّة، وقرّر إنشاء جامعة إسلاميّة في القدس، وإنشاء شركة زراعيّة لإنقاذ الأراضي الفلسطينيّة، والحيلولة دون استيلاء اليهود عليها.

تصاعد النّضال الفلسطينيّ

(انتفاضة ١٩٣٣)

شكّلت الفترة الممتدّة من العام ١٩٣٠ وحتّى العام ١٩٣٥ سنوات القهر والاحتقان النّاجم عن تدفّق الهجرة اليهوديّة لفلسطين ودعم وممارسات سلطات الانتداب البريطانيّ لصالحهم، ممّا فجّر الثّورة الفلسطينيّة في العام ١٩٣٦ بقيادة الشّيخ عزّ الدّين القسّام، وخاصّة بعد أن أصبح واضحاً بعد سحب الكتاب الأبيض، وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل صدوره، بتآمر وتواطؤ ودعم سلطات الانتداب البريطانيّ اليهوديّ.

وفي المؤتمر الفلسطينيّ الّذي عقد في القدس عام ١٩٣٣ طالب المؤتمرون بعدم التّعاون مع سلطات الانتداب البريطانيّ، والامتناع عن قبول دعواتهم في الاحتفالات، والمطالبة بوقف الهجرة اليهوديّة وتسريب الأراضي إليهم.

لقد كان الإعداد المتميّز الّذي قامت به منظمات الشّباب الفلسطينيّة من أجل مظاهرة يافا حدثاً كبيراً، حيث تجمّع في المرفأ أكثر من سبعة آلاف متظاهر، شمل المناضلين الّذين قدموا من كلّ أرجاء فلسطين، ووفد نسائيّ من القدس، وكذلك حضرت وفود قدمت من سوريا والأردنّ.

واتّحدت مواقف الأحزاب والهيئات في فلسطين كافة على موقف واحد بما في ذلك أعضاء اللجنة التّنفيذيّة، وكتبت جريدة حزب المفتي (الجامعة العربيّة) في أحد مقالاتها: «اركلوا هؤلاء الصّهاينة بأقدامكم، وقفوا وجهاً لوجه أمام

بريطانيا العظمى...» فالصّهيونيّة ليست سوى مشروعٍ إجراميّ تشجعه بريطانيا، وتحميه بحراب جنودها، وهي تهدف إلى قمع العرب وإخضاعهم.

كانت البداية في يافا والقدس، فبعد مؤتمر الشّبيبة اشتعلت المظاهرات والإضرابات في كلّ أرجاء فلسطين، وأدّت الصّدامات مع البوليس البريطانيّ في يافا إلى قتل أحد أفراد البوليس، وجرح (٢٥) فرداً.

أمّا المتظاهرون فقد قتل منهم (١٢) شخصاً، وجرح (٧٨)، وألقى القبض على العشرات من المشاركين في المظاهرات، ومنهم عدد من قيادات الشّباب.

أمّا في القدس، فقد جرت المظاهرة الأولى يوم الجمعة ١٣ تشرين أوّل / أكتوبر ١٩٣٣ وصاحَبَها إضراب عامّ في جميع فلسطين، وشارك في المظاهرة أكثر من ثلاثين ألفاً قدموا إلى القدس من كل أنحاء فلسطين، وكان على رأسهم موسى كاظم باشا الحسيني (رئيس بلدية القدس)، وكان في الثمانين من عمره.

هاجم المتظاهرون الّذين لا يملكون لا الحجارة ولا العصي البوليس الإنجليزيّ بأحذيتهم، وجرح أكثر من ٣٥ فلسطينياً في ذلك اليوم. وتقرر بعد هذه المظاهرة أن يكون يوم الجمعة ٢٧ /تشرين أوّل / أكتوبر ١٩٣٣ هو يوم المظاهرة في يافا، فتحرّكت الجموع من القدس ونابلس والخليل وحيفا إلى يافا، حيث تجمهرت امام الجامع الكبير.

واصطدم المتظاهرون مع الجيش البريطانيّ المدجّج بالسّلاح ومنادين بسقوط بريطانيا وحياة الأمة العربية، وأطلق الجيش النّار على المتظاهرين، فاستشهد (٣٢) شاباً فلسطينيّاً، وجرح (١٦٧) آخرين، وضرب الشّيخ الجليل موسى كاظم الحسيني على رأسه، فرجع جريحاً وتوفي على أثر ذلك في آذار / مارس ١٩٣٤.

وعلى إثر ذلك أعلن الشّعب الفلسطينيّ الإضراب العامّ في كلّ المدن والقرى لمدّة اسبوع احتجاجاً وسخطاً على السّياسة البريطانيّة. وكانت ردّة الفعل العربيّة على الانتفاضة في العام ١٩٣٣ قوية جدّاً انتقلت أخبارها إلى كلّ المناطق العربيّة، وتناولتها الصّحف بالتّعظيم والتّمجيد، وأصبحت فلسطين محور الاهتمام العربيّ، ومركزاً لإلهام المشاعر القوميّة العربيّة والإسلاميّة.

وفي هذا الوقت عصفت الأزمة الاقتصاديّة الّتي كانت تجتاح العالم بالاقتصاد الفلسطينيّ، وعانى الفلسطينيون من هبوط كبير في الأسعار وخاصّة المنتجات الزّراعيّة، حيث وصل الهبوط إلى نسبة ٧٠-٧٥ بالمئة عمّا كانت عليه في العام ١٩٢٩ بداية الأزمة الاقتصاديّة العالميّة، وشهدت الزّراعة موسم جفاف رافقها غزو الجراد، وارتفعت الضّرائب على الفّلاحين، وارتفع معدل التّجارة اليهوديّة إلى فلسطين.

وفي نفس العام في ٣ / كانون الثّاني/يناير / ١٩٣٣ تسلم أدولف هتلر السّلطة في المانيا، وكان لذلك الأثر على أوضاع اليهود في ألمانيا وفي كلّ أوروبا.

وبالتّنسيق مع قيادات الحركة الصّهيونيّة وقيادات دول الحلف وكذلك مع بعض قيادات الحركة النّازيّة تمّ تهجير اليهود. ومن المانيا وحدها بلغ عدد المهاجرين من العام ١٩٣٢ - ١٩٣٩ ما مجموعه (٤٣٨٠٠) مهاجر، بينما لم يزد عددهم في السّنوات ما بين ١٩٢٤ - ١٩٣١ عن (١٠٠٠) مهاجر فقط، وحتّى العام ١٩٣٥ بلغ عدد اليهود في فلسطين ٤٤٣ الفاً، وقفز معدل الهجرة في تلك الفترة إلى ٤٢٩٨٥ مهاجراً للعام الواحد بعد أن كان فيما بين ١٩٢٦ - ١٩٣٢ بمعدل ٧٢٠١ مهاجراً في العام.

واعـترف الجـنرال آرثـر واكهـوب المنـدوب السّـامي الّذي بلغـت الهجـرة في عهـده ذروتهـا، بقـوله: «إنّ عـدداً كبيراً من اليهـود يدخلـون البلاد تهريبـاً بصورة غـير مشروعـة دون علـم الحكومـة أو بإذنها ومراقبتهـا، وعددهم لا يقـل في الواقع عن عـدد اليهـود غـير المهربين».

المؤسّسات العسكريّة الصّهيونيّة

تهريب الأسلحة لليهود

شكّل جابوتنسكي حزباً برئاسته، وكان فكره يستند إلى ضرورة احتلال فلسطين وشرق الأردنّ وإنشاء وطن قوميّ لليهود، وهذا لا يمكن أن يتّم إلا بالقوّة واستخدام السّلاح، وارهاب العرب وحملهم على الرحيل... ولهذا قام بتشكيل مجموعات عسكريّة، تتدرّب يوميّاً على السّلاح، وتقوم في نفس الوقت بالتّرحال في مناطق فلسطين على شكل مجموعات كشفيّة.

وفي نفس الوقت تزعّم وايزمان حزب المباي، الّذي تتبع له مؤسّسة الهاغانا العسكريّة الّتي تولّت حراسة المستعمرات اليهوديّة. والّتي كانت الحكومة البريطانيّة تعترف بها، وتتعامل معها كقوّة عسكريّة مشروعة رغم تبعيتها للوكالة اليهوديّة، إضافة إلى ذلك كان لليهود قوّة بوليسيّة يختلف لباسها عن البوليس العربيّ، وتمركزت هذه القوّة في تلّ أبيب.

ومع زيادة الهجرة احتاج الصّهاينة إلى المزيد من الأسلحة، فلم تعد تكفي الأسلحة التّي تزوّدهم بها قوّات الاحتلال البريطانيّ، لذلك كانوا يقومون بتهريب السّلاح. وفي يوم ١٦ تشرين الأوّل / اكتوبر ١٩٣٤ اكتشف بالصدفة عملية تهريب كبيرة جداً، عندما رست في ميناء يافا باخرة محملة براميل كبيرة، وفي أثناء تفريغ الحمولة سقطت من الرّافعة بعض البراميل صدفة وانكسرت، وأمام دهشة النّاس الموجودين من عمال وبوليس وموظفين، وجدوا بداخل كلّ برميل

صفيحة مثبتة وسط الإسمنت تحتوي على اسلحة وذخائر مهربة من بلجيكا، وكان معظمها مسدّسات ضخمة من نوع (ماوزر) أو ما يسمى (منشن)، وهي مسدّسات حربيّة طويلة السّبطانة يمكن أن تطلق طلقة طلقة أو رشّاً، ومدى رمايتها ألف ياردة، وهي بذلك تصبح من أفضل أنواع الرّشّاشات.

لم تكتشف العمليّة إلّا بعد أنْ تمّ إفراغ القسم الأكبر من الشّحنة، وقد نقلت الكميات الأولى بشاحنات إلى الكيبوتسات الصّهيونيّة، وغضت سلطة الاحتلال البريطانيّ البصر، لكنها طلبت من القيادة الصّهيونيّة استيراد مصانع أسلحة لا يمكن للفلسطينيين أو رجال الجمارك كشف دورها أو مهمتها، وهكذا تمّ، وقد استعملت هذه الاسلحة المصنّعة في ثلاثة مصانع في حرب عام ١٩٤٧م.

وعلى إثر عمليّة التّهريب تلك حاول العديد من الشّباب الفلسطينيّ الثائر الحصول على السّلاح، ورغم الصّعوبات الجمّة أمام ذلك الهدف، إلّا أنّ بعضهم استطاع الحصول على مسّدسات.

وفي هذا الوقت وبعد احداث تشرين أوّل وتشرين الثّاني ١٩٣٣ تمّ تشكيل تنظيم مسلّح قاده عبد القادر الحسينيّ نجل المناضل موسى كاظم الحسينيّ، وذلك تحت اسم «منظمة الجهاد المقدّس»، وفي نفس الوقت أصبحت هذه المنظّمة على علاقة وطيدة مع الشّيخ عزّ الدّين القسّام، وهو سوريّ المولد، وقد هاجر إلى حيفا بعد انهيار الثّورة السّوريّة ضد الاحتلال الفرنسيّ، والّتي كان مشاركاً فيها.

وعمل القسّام خلال فترة عمله كموظّف في المحكمة الشّرعيّة في حيفا

على إعـداد خلايـا عسـكريّة سريّـة يصـل عـدد أفـراد المجموعـة فيها إلى خمسـة أفـراد، وكان مقـرّه في الـحيّ القديـم مـن حيفا حيـث الفقراء مـن الفلّاحـين الّذين هجـروا قراهم.

وحـتّى العـام ١٩٣٥ اسـتطاع القسّـام تنظيـم خمس لجـان لتحقيـق الأهداف التّاليـة: الدّعايـة، والتّدريـب العسـكريّ، والتّمويـن، والاسـتخبارات، والعلاقـات الخارجيّـة. واسـتطاع أن يجنّد (٢٠٠) مناضـل، وينظم ما يقـارب (٨٠٠) من الأنصار، وقامـت المجمـوعات الصّغـيرة التّابعـة للقسّـام بعـدّة عمليّـات بطوليّـة في منطقـة المثلـث «جنـين، ونابلـس، وطولكـرم»، حيث قامـت باغتيـال العديد مـن الضّباط البريطانيـين، ونسـفت القطـارات، ومهاجمـة معسـكرات الجيـش البريطانيّ.

لقـد كانت هذه العمليّات تعدّ مشـاعل للثّورة القادمة للشّـعب الفلسـطينيّ. وحـوصرت قـوات القسّـام في غابـة يعبـد في منطقة جنـين، وانتهت عمليّـة الحصار في ٢٥/ تشريـن الثّـاني ١٩٣٥، واستشـهد القائد، ورثاه الشّـاعر فـؤاد الخطيب، فقال:

أولـت عمامتـك العمائـم كلّهـــــا شرفاً تقصّر عنده التّيجـــــانُ.
يارهـط عـزّ الدّيـن حسـبك نعمـة في الخـلد لاَعَنـتٌ، ولا أحـــزانُ.

وخـرج الآلاف في تشـييع جنـازة الشّـهداء، ودفنـوا في الباجورة قـرب حيفا، وكتبـت جريـدة فلسـطين عنوان ذلـك اليوم: «بـررة أتقيـاء، لا فجرة أشـقياء أيّتها الحكومة».

لقـد فجّرت ثـورة القسّـام العواطف الفلسـطينيّة ضّـد الاحتـلال البريطانيّ مبـاشرة والصّهاينـة، وأعطى استشـهاد القسّـام مشـاعر جديدة بأنّـه كان على حقّ، وأنّـه أصبح مـن الـضّروريّ الكفاح المسـلّح لمواجهـة العدّو.

الشّيخ عزّالدّين القسّام

ظاهرة وطنيّة عظيمة

لا يمكن الحديث عن الثّورات الفلسطينيّة دون الحديث عن ظاهرة الشّيخ عزّالدّين القسّام، الّتي كانت أنموذجاً وطنيّاً وقوميّاً ودينيّاً حتّى وصلت إلى روح الصّوفيّة الواقعيّة، وعنواناً للنّضال المسلّح ضدّ الإنجليز واليهود وملاحقة العملاء، الّذين كانوا يقدّمون المعلومات للإنجليز عن تحرّكات المناضلين وأماكن وجودهم.

لقد قَدِمَ الشّيخ عزّالدّين القسّام من سوريا يحمل في قناعته القتال ضدّ الإنجليز واليهود من منطلق دينيّ ووطنيّ وقوميّ، فكلّ أرض الشّام وحدة واحدة، والجهاد فيها ضدّ الأعداء فرض واجب على كلّ مسلم.

استقرّ الشّيخ عزّ الدّين في مدينة حيفا، ومنها انطلق إلى كلّ أرض فلسطين. كان خطيباً موجّهاً منتمياً لدينه بقوّة، ولهذا كانت كلماته تخرج في خطاباته واثقة عميقة الإيمان، وحجّته في الحديث لا تردّ ولا تزعزع، وتؤثّر تأثيراً عظيماً في كلّ من يسمعه.

كان الشّيخ يبتعد عن زعامات فلسطين السّياسيّة والإقطاعيّة، وكان يتحلّق حوله الفلّاحون وعامة النّاس الّذين كان يبهرهم بتقشفه وورعه.

كان يعتمد في حديثة على القرآن الكريم والأحاديث النّبويّة الشّريفة، وكانت تلك الأحاديث تدخل إلى قلوب المستمعين وعقولهم، وكادت أن تفوق

طريقتـه في الأحاديـث والمسـالك والتّقشّـف وعـدم الاعتمـاد هو وصحبـه على أيّة معونـات خارجيّـة إلّا مـا كان لديه، ومـا كان يغنمه أصحابه من الأعـداء إلى طريقة صوفيّـة تـردّد تأثيرها تحـت عنـوان «الطّريقة القسّـاميّة».

لقـد أتى الشّـيخ عزّ الدّين إلى فلسـطين في أحلـك ظروفها، فالهجـرة اليهوديّة كانـت على أشـدّها، وكان يظهـر أمـام الجميـع تواطـؤ الإنجلـيز في تدريـب وتسـليح اليهـود ومضاعفـة ارقـام المهاجريـن منهـم بدعـم مـن الصّهيـونيّ الكبير ونسـتون تشرشـل رئيـس وزراء بريطانيا.

وبالطّبـع كان الشّـيخ (وصحبـه) على درايـة بهـذا الواقـع المريـر. ونتيجـة لذلـك قامـت المجموعات القسّـاميّة بمشـاركة الشّـيخ بعـدّة عمليّات ضـدّ الجيش الإنجلـيزيّ، وخاصّـة في شـمال فلسـطين، فقـام الإنجلـيز ببـثّ عيونهـم في محاولـة لمعرفـة مـن خلف تلـك العمليّـات، وقامـوا بتجنيد العديـد من العمـلاء، وخاصّة مـن أبناء الأعيـان أوّلاً، ومـن بقية القطـاعات؛ ليجمعوا أكبر كميّة مـن المعلومات عمّـن يقـوم بهـذه الأعمـال. ولهذا الغـرض ايضاً عـيّن أهمّ قيـادات الاسـتخبارات البريطانيـة في فلسـطين (أنـدروز) الاسـترالـيّ الأصـل حاكمـاً لمنطقـة الجليل، فكان يظهـر للعـرب مـا لا يبطـن، واتّخذ عـدداً منهـم أصدقـاء له، وفي نفـس الوقت كان يقطن في شـمال تـل ابيب، وكان يجمـع المعلومات مـن أصدقائه، ويصنّفهـا ويفرزها في ملفّـات خاصّـة حسـب الأهميّـة والمنطقة والـتي وضعت فيما بعـد تحت تصرف الوكالـة اليهودية.

لقـد ظهـر له بعـد التصنيـف والفـرز أنّ الحركـة القسّـاميّة ليسـت بعيـدة عـن هـذه العمليّـات، رغم أنّ الحركة ليسـت لهـا أيّة زعامـات غير الشّـيخ وأعوانه المخلصـين، وأنّـه لـم يكن سـهلاً اخـتراق هـذه الحركة. ولا بـدّ من الإشـارة إلى أنّ

أتبـاع القسّـام كانـوا يدينـون له بالـولاء المطلق؛ فلـم يطلبـوا أيّ دعـم أو معونة أو مـال، فقـد كانـوا يبيعـون أمتعتهم ومـا يمتلكـون؛ للحصـول على مـا يحتاجونه من سـلاح، فتميّزوا بذلـك عـن أيّة حـركات أخرى.

وكمـا أشرت سـابقاً، فقد لعـب القسّـاميون دوراً بارزاً في حربهـم ضدّ اليهود والانجلـيز وتصفيـة العمـلاء، وكان نشـاطهم بـارزاً منـذ ثـورة عام ١٩٣٦ وحـتّى عام ١٩٣٩. ونظـراً لتشـديد الرّقابـة على الشّـيخ ارتحل من حيفا إلى جنـين حيث صديقه الشـهيد فرحان السّعديّ.

علمـت الحكومـة الإنجليزيّـة بوجـود الشّـيخ عـزّ الدّيـن في تلـك المنطقـة، فحـاصرت مـكان وجـوده بقـوّة كبيرة مـن الجيـش والشّرطـة، واسـتخدم الانجليز الطّائـرات في متابعـة تحـرّكات مجموعـة من القسّـاميين وهـو معهـم... وفي معركة لـم تسـتغرق فترة طويلـة من الزّمن استشـهد الشّـيخ المناضـل عزّ الدّين القسّـام.

ألقـت السّـلطات البريطانيّة القبـض على صديقه ومسـاعده الكبير الشّـهيد فرحـان السّـعديّ الّذي كان قـد جـاوز الثّمانـين عامـاً مـن عمـره، وأعدمته شـنقاً، وكان صائمـاً في شـهر رمضان. ورغـم كلّ محاولات تبديل حكم الاعـدام أو تأجيله رفضـت السّـلطات البريطانيّة ذلك.

تحوّلـت حركـة القسّـاميين بعد رحيل الشّـيخ إلى مجمـوعات نضاليّة شـديدة القّـوة والاسـتعداد للفـداء والتّضحيـة، وكانـت نتيجـة إحـدى عمليّـات هـذه المجمـوعات القسّـامية أن دفـع البريطـانيّ الاسـترالـيّ قائـد المخابـرات البريطانيّـة (أنـدروز) وسـائقه حياتـه في عمليـة جريئـة أثنـاء خروجـه مـن احـدى كنائـس النـاصرة، حيـث سـقط عليـه وابـل مـن الرّصـاص أودى بحياتـه.

هنـا، ونحـن نسـتذكر ذاك الشّـيخ الجليـل ابـن سـوريا والّذي سـقط مجاهـداً على أرض فلسـطين، نشـير إلى أنّ هنـاك العديـد مـن المجمـوعات الّتي كانـت تقاوم الاحتـلال البريطـانيّ والوجـود اليهـودي على أرض فلسـطين لـم يتـمّ ذكرهـا نظـراً للسّرّيّـة البالغـة حولها.

ثورة فلسطين الكبرى

١٩٣٦ – ١٩٣٩

تراكمت الأسباب التّي أدّت إلى ثورة شعبيّة عارمة في أنحاء فلسطين كافّة، واشتركت في هذه الثّورة كافةّ قطاعات الشّعب الفلسطينيّ وخاصّة الفّلاحون والطّلاّب... وهذا التّوحّد بين هاتين الفئتين النّشيطتين والواسعتين دفع بالأحزاب والقوى الفلسطينيّة المختلفة إلى التّوحّد أيضاً.

في الخامس والعشرين من نيسان ١٩٣٦ عقدت هذه القوى والأحزاب اجتماعاً، وشكّلت على إثره لجنة عليا عرفت باسم اللجنة العربيّة العليا، حيث ترأّسها الحاجّ أمين الحسينيّ، وإلى جانبه من الأعضاء كان عوني عبد الهادي (سكرتير اللجنة)، وأحمد حلمي باشا (أمين الصّندوق)، وراغب النّشاشيبي، وجمال الحسيني، وعبد اللطيف صلاح، والدّكتور حسين الخالدي، ويعقوب الغصين، ويعقوب فرّاج، والفرد روك، وفؤاد سابا.

أعلنت اللجنة أنّ هؤلاء الزّعماء أصبحوا بمثابة لجنة لمواصلة الإضراب العامّ حتّى تغيّر الحكومة البريطانيّة سياستها، فتبدأ بمنع الهجرة اليهوديّة، ومنع تسهيل امتلاك اليهود للأراضي، وتأليف حكومة وطنيّة مسؤولة أمام مجلس تمثيليّ.

لقد تعدّدت الأسباب لهذا الاحتقان الذّي أدّى إلى انفجار الثّورة، فقد تراكمت الأسباب، وأصبح واضحاً للجماهير الفلسطينيّة أنّ الانتداب البريطانيّ جاء لتنفيذ وعد بلفور.

ونتيجة للممارسات على الأرض ظهرت قناعة لدى الفلسطينيين أنّه يجب أنْ تتّم محاربة الجيش البريطانيّ كما الصّهاينة، ولعلّ هذه الأسباب تتلخّص بالتّالي:

١- **نقمة العرب على احتلال بريطانيا البلاد، في الوقت الذّي كان العرب فيه يسعون للاستقلال والوحدة. ولهذا ثاروا على الحكم العثمانيّ، وتحالفوا مع البريطانيين... وكانت النتّيجة وقوع كلّ المشرق العربيّ بما في ذلك فلسطين تحت نير الاستعمار البريطانيّ والفرنسيّ، وتمزيق المشرق العربيّ إلى دويلات.**

٢- **تبنّى بريطانيا سياسة وعد بلفور بكلّ إصرار، وبذلها أقصى الجهود لمساعدة الحركة الصّهيونيّة على قيام الوطن القوميّ اليهوديّ.**

٣- **مساعدة بريطانيا اليهود على تملّك الأراضي في فلسطين، وخوف العرب من أن يصبحوا بلا أرض، وبلا مورد رزق وخاصّة الفلّاحين.**

٤- **الهجرة اليهوديّة الكثيفة التّي بلغت (٦٢ ألف) مهاجر رسميّ في العام ١٩٣٥، ونفس العدد من المهاجرين المهرّبين، ممّا أصبح يهدّد عرب فلسطين أن يطردوا منها.**

٥- **تشكيل قوّة مسلّحة صهيونيّة لمساعدة بريطانيا، وبدأ الفلسطينيون يلمسون وجودها وقوتها وخطرها على وجودهم وبالإضافة لما سبق فإنّ الأحداث التّي وقعت شكّلت عمليّة تراكميّة لنار الثّورة القادمة، وهي:**

- **انتفاضة سنة ١٩٣٣.**
- **انكشاف عمليّة تهريب السّلاح لليهود.**
- **حركة الشّهيد الشّيخ عزّ الدّين القسّام.**
- **نشوء خلايا ثوريّة مسلّحة في جميع أنحاء فلسطين.**

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّه لم يقم أيّ حزب أو مجموعة أو أفراد محدودين بالتّخطيط لثورة ١٩٣٦، لكن الشّعب هو الذّي سبق القيادة -وكالعادة- في إطلاق شرارة الثّورة، وذلك في مساء يوم الأربعاء ١٥ / نيسان/ ابريل ١٩٣٦، عندما قامت مجموعة مسلّحة باعتراض سيّارات كانت تعبر الطّريق إلى يافا، وسلبت أموال ركّابها، وأبلغتهم أنّ هذه الأموال لمحاربة اليهود، وقتلت المجموعة يهوديا، وهاجم اليهود اثنين من العرب وقتلوهما في ١٦ نيسان / ابريل في كوخهما على طريق نابلس كفار -سابا.

استمرّت الحوادث، وتطورّت إلى قتال بين الفلسطينيين واليهود، ولم يحن يوم ٢٠ نيسان/ ابريل / ١٩٣٦ إلّا وكان قد قتل ١٢ يهوديّا وجرح ٦٥ منهم، واستشهد ٦ فلسطينيين وجرح ٤٧ منهم. وعلى إثر ذلك عمّت الإضرابات يافا والقدس والخليل وحيفا.

يقول عيسى السفري: « إنّ الإضراب بدأ في يافا أوّلاً، ولم يمض عليه قليل من الزّمن حتّى شمل البلاد كلّها، وأصبح يشرف عليها نظام دقيق من اللجان القوميّة الشعبية، مدفوعة إليه الأمة بإرادتها، فلا تحريض ولا إرهاب ولا أحزاب ولا رئاسات».

لقد كان هذا الاضراب مختلفاً عن الاضرابات كافّةً، فقد شمل نواحي الحياة، واستمرّ أكثر من ستّة اشهر، ولم تشهد له المنطقة العربيّة مثيلاً، فمن ١٥ ابريل/ نيسان ١٩٣٦ وحتّى تشرين أوّل/ اكتوبر ١٩٣٦ كانت الأرض والشّعب الفلسطينيّ في ثورة تاريخيّة.

تُوّج الإضراب بالعصيان المدنيّ، حيث تمّ التّوقفّ عن دفع الضّرائب أو

التّعامـل مـع الدّوائـر الحكوميّة، وتوقّفـت الحياة تمامـاً؛ فلم يعد العمـال إلى مراكز عملهـم، ولـم تعد المتاجـر تفتح أبوابهـا، ولا المصانـع والمدارس.

تشكّلت اللجان لمتابعة كافّة احتياجات النّاس والثّوار في آن واحد.

لقـد شـكّل الفلّاحون عصـب الثّورة ورصيدها القويّ، فهم يشـكّلون ما نسـبته ٧٠ بالمئـة مـن السّـكان، وتعتبر القـرى ملجأ للثّوار حـتّى القادمين مـن المدن بحكم أن الطّـرق الممتـدّة بين المـدن والقـرى ترابيّةَ، ويسـهل تخريبها وقطعهـا، والفلّاحون هـم أكثر من يعـاني من الضّرائـب، وهم المسـتهدفون من وعد بلفور بالاسـتيلاء على أراضيهم، وتسـليمها لليهود.

ولهـذا كانـت القرى تعـدُّ مراكز للثّورة المسـلّحة، ويتسـابق الأهـالي على اغاثة الثّـوار وتجهيزهم.

كانـت تنطلـق مجموعات الثّـوار من القـرى نحو معسـكرات الجيـش البريطانيّ وتهاجمهـا، وفي المدن تتمّ مهاجمـة مراكز البوليس والدّوائـر الحكوميّة، وبكلّ الانتماء لهـذا الوطن يتمّ التّنسـيق بـين مجموعات الثّوار في القـرى والجبال وبين الثّـوار في المدن. وفي نفـس الوقـت كان هنـاك تنسـيق خـفيّ بـين الثّوار وبـين أفـراد البوليـس العرب الّذيـن كانوا يقّدمـون الدّعم والمعلومـات للثّوار.

لقـد كانـت هناك صعوبـات كبيرة في توفير السّـلاح لهـؤلاء الثّـوار، وكان كلّ واحـد منهـم يقـوم بتأمين سـلاحه الفـرديّ بنفسـه، وخاصّة مـن الأسـلحة المهّربة مـن الأردنّ الّتي كانـت تقتصر على البنـادق القديمة والمسدّسـات والقنابل اليدويّة.

لقـد كان الثّـوار في كثـير مـن الأحيان يسـيطرون على بعض مخافـر البوليس، ويسـتولون على الأسـلحة الموجـودة فيـه. وفي إحـدى هجمـات الثّـوار تمّ الاسـتيلاء

على مستودعات للسّلاح والذّخائر في بئر السّبع، ووجدوا فيها (٦٠٠) قطعة سلاح منها رشّاشات «لويس غن».

اتّسع نطاق العمليّات العسكريّة، وتشكّلت الخلايا المسلّحة، وكانت في غاية السّرّيّة في المدن والقرى والتي كان عدد أفراد الفصيل يتراوح من ١٠ - ٢٠ فرداً، ثّم ازداد بعد دخول فوزي القاوقجي إلى خمسين فرداً، ولم تقم هذه الخلايا والمجموعات بأيّة عمليّات نهب أو سرقة، بل كان أعضاؤها روّاداً للكفاح في وجه العدوان من أجل الدّفاع عن الوطن، وحمايته في ظّل الظّلم والقهر والعدوان البريطانيّ الصّهيونيّ.

لقد نفّذت هذه المجموعات العشرات من العمليّات العسكريّة خلال الفترة الواقعة ما بين نيسان وآب ١٩٣٦، ومنها أكثر من عشرين عمليّة ضدّ السّكك الحديديّة والقطارات والجسور، ومنها:

١- **عمليّة ضدّ القطار الّذي يسير بين قرية كفر جنّس ومحطّة اللّد، حيث سقط القطار عند الكيلو ١٠٧، ومن ثمّ على جسر تمّ تخريبه.**

٢- **اصطدام قطارين جراء تخريب الخطوط عند محطّة رأس العين.**

٣- **خروج قطار شحن عن خطّه، وانقلابه في المنطقة الواقعة بين قلقيلية و حلحو ليّة .**

٤- **تدهور قطار عند كفر جنّس، وتحطّم ١٥ عربة من عرباته.**

٥- **انقلاب قاطرة بستّ عربات بين السّافريّةَ واللدّ.**

٦- **انقلاب قطار الدّوريّة والتّفتيش عند قاقون.**

٧- **إخراج قطار بضائع عند رأس العين عن خطّه.**

مـن ناحيـة أخـرى لـم يعـد الجيـش البريطـانيّ يتحّـرك إلّا بأرتـال وحمايـة مـن الدّبابـات والطّائـرات، فـكان الثّـوار يعملـون الحواجز مـن الـتّراب والحجارة، وعنـد توقّـف هـذه الأرتـال كان الثّـوار يمطرونهـا بالقنابـل والأسـلحة الرّشّاشـة، وعندمـا تـأتي التّجـدات كانـت تواجـه حواجـز وألغامـاً جديـدة يقـوم بهـا الثّوار في القـرى المجـاورة. ومـن أبـرز المعـارك في تلـك الفـترة:

١- **معركـة نـور شـمس في ٢٢ حزيـران ١٩٣٦ الّـتي اسـتمرّت ٧ سـاعات، وامتـدّت الاشـتباكات مـن ديـر شرف قـرب نابلـس حـتّى طولكـرم، واشـتركت فيهـا ثـلاث طائـرات.**

٢- **معركة عين جارود في ٩ حزيران ١٩٣٦ في مرج ابن عامر.**

٣- **معركة باب الواد في ٢٦ تمّوز ١٩٣٦ على طريق القدس يافا.**

٤- **سلسـلة معـارك عـين خـير الدّيـن، وجـورة بحلـص، وبيـت خـيران قـرب الخليـل سلسـلة معـارك قوافـل البحـر الميّـت على طريـق القـدس أريحـا.**

ومن أبرز العمليّات في المدن:

- **الهجوم على سينما أديسون في القدس آيار ١٩٣٦.**
- **الهجـوم على سـيّارة مفتـش بوليـس القـدس البريطـانيّ (سـيكرت) في ١٢ حزيـران ١٩٣٦.**
- **الهجوم على اثنين من ضبّاط الطّيران الإنجليزيّ في القدس.**

هـذا كلّـه في المرحلة الأولى مـن الثّورة الّـتي ترافقت مـع الإضراب العامّ لكلّ منـاحي الحيـاة على كلّ الأرض الفلسـطينيّة. أمّـا في المرحلـة الثّانية الّـتي امتدّت من

آواخـر آب/ أغسـطس ١٩٣٦ وحتّى نهايـة تشرين الأوّل/ اكتوبر ١٩٣٦ فقد توسّـعت العمليّات العسـكريّة، وتسـابق الشّـباب المجاهـد للالتحاق بقوّات الثّـورة، وأصبح لدى فـوزي القاوقـجي أكثر مـن (٢٠٠) مقاتل في كلّ اسـتدعاء، وجـرت معارك كبيرة ضـدّ الجيـش البريطـانيّ والصّهاينة، ومن هـذه المعارك:

- **معركة بلعا في ١٠ اب ١٩٣٦.**
- **معركة عصيرة الشّماليّة في ١٧ اب ١٩٣٦.**
- **معركة وادي عرعرة في ٢٠ اب ١٩٣٦.**
- **معركة عين دور في ٢٩ اب ١٩٣٦.**

كذلـك جـرت عـدّة عمليّـات تمثّلـت في نسـف خـطّ البـترول الممتّـد مـن العـراق إلى مينـاء حيفـا، وتوقّف ضخّ النّفط فيه، واسـتدعت السّـلطات البريطانيّة دعمـاً مـن قوّاتهـا على الحـدود مـع شرق الأردّن ومن مـصر، وأشركـت الطّائرات في مواجهـة الثّـوار، واسـتمرت المعـارك متنقّلـة في كلّ المـدن والأرياف الفلسـطينيّة. وبـرز دور القائـد المجاهـد عبـد القـادر الحسـينيّ ومعه سـعيد العـاص في منطقة القـدس وأريافهـا، فتعـدّدت العمليّـات العسـكريّة هنـا، وسـقط العديـد مـن البريطانيـين واليهـود، وكذلـك سـقط عدد مـن الشّـهداء الفلسـطينيين.

ومن أشهر معارك أيلول ١٩٣٦:

- **معركة بلعا الثّانية في ٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦.**
- **معركة ترشيحا ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦.**
- **معركة الجاعونة ٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦.**

- **معركة جبع ٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦.**
- **معركة حلحول ٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦.**
- **معركة بيت أمّر ٢٩ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦.**

ومن المعارك المشهورة أيضا معركة الخضر-صور باهر، وكذلك لم تتوقّف الهجمات ضدّ المراكز وسكك الحديد والضّباط البريطانيين واليهود.

كانت حصيلة الثّورة طبقاً للأرقام الرسمية مقتل (١٦) رجل بوليس، و (٢٢) جنديّاً، وإصابة (١٠٤) من رجال البوليس، و(١٤٨) جنديّاً جريحاً. يضاف إلى ذلك مقتل (٨٠) يهوديّاً وجرح نحو (٣٠٨) آخرين. أمّا فيما يتعلّق بالفلسطينيين فإنّ الإحصاءات الرّسميّة تشير إلى مقتل (١٤٥) رجلاً، وإصابة (٨٠٤) أفراد بجراح، وهذه المعلومات مبنية على الوفيات المؤكّده، والجرحى الّذين تم علاجهم في المستشفيات.

استمرّ الجهاد الفلسطينيّ بعد أن أخمدت ثورة عام ١٩٣٦ بتدّخل عربيّ وضغط بريطانيّ، وبعد أن كاد الفلسطينيون أن يصلوا إلى حدود الحريّة والاستقلال، لكنّ شعلة إضراب ١٩٣٦ لم تنطفئ وبقي القتال مستمرّاً في كلّ الأرض الفسطينيّة، فكان الفلسطينيون يهاجمون المواقع العسكريّة البريطانيّة واليهوديّة، ويقوم اليهود بنسف بيوت الفلسطينيين.

وهنا أتوقّف لأستذكر أنّ سياسة هدم البيوت الفلسطينيّة لم تأت أو تنشأ في عهد نتنياهو، بل كانت منذ قيام هذا الكيان. واستمرّ هذا القتال حتّى العام ١٩٣٩.

الحرب العالميّة الثّانية
توقّف الثورة

في أيلول/سبتمبر عام ١٩٣٩ نشبت الحرب العالميّة الثّانية، وفي نفس الشّهر توقّف الفلسطينيون عن القتال، فالمعاناة والقهر والمحاصرة والقتل اليوميّ بيد البريطانيين واليهود لم تتوقف، واستخدم البريطانيون لتركيع الفلسطينيين بالحصار والضرائب والغرامات والعقوبات الجماعيّة من خلال تطبيق قانون المحتّل، فالعقوبة كانت لا تقتصر على فرد، بل كانت تشمل كل أهل القرية أو البلدة، وحيواناتهم الّتي كانت تمنع من الرّعي خارج القرية والبلدة في اطار ما يعرف بسياسة العقاب الجماعي وفق قانون الطوارئ الاستعماري.

لم يظهر القادة الفلسطينيون وقادة الثّورة في ذاك الوقت، فالمفتي منفيّ إلى لبنان وعدد كبير من القادة الفلسطينيين منفيوّن إلى جزيرة سيشل حيث نفي سابقاً سعد زغلول، ولم يكن السّلاح متوفّراً إلّا من اشترى بندقيّة قبل حين، أو من اشترت له زوجته بذهبها بندقيّة يقاتل بها، وبالطّبع كانت الهجمات على معسكرات اليهود والبريطانيين هي المصدر الأساسيّ للسّلاح.. ولا يمكن إنكار دور العراق آنذاك بتزويد الثّورة بالسّلاح الخفيف، كما لا ننسى دور السّوريين واللبنانيين الّذين شارك بعضهم في كلّ حروب فلسطين.

ومع اندلاع الحرب العالميّة الثّانية ازداد حصار الفلسطينيين، وكان الهدف تقويض ثورتهم رغم وعود بريطانيا الكاذبة. وبالطّبع فإنّ العرب ألقوا سلاحهم، وبقي القليل من رجال فلسطين قابضين على بنادقهم. وقدّمت بريطانيا وعدها

بتجديد الهجرة لليهود، وتعهّد الكتاب الأبيض البريطانيّ بإدخال خمسة وسبعين ألفاً من اليهود فقط. وفعلاً أدخل هذا العدد في عام واحد هو عام ١٩٤٥. لكنّ الهجرة استمرّت بمعدّل (١٥٠٠) مهاجر شهريّاً.

ومثل آخر على عدم الوثوق بالإنجليز في الأزمة الاستعماريّة بل وفي كلّ المستعمرات، فقدّ اعتمدت الوعود والتفريق بين النّاس حتّى بين أفراد العائلة الواحدة، فقدّ وعدت بالحدّ من وصول وتسرّب الأراضي لليهود، ولكنّها رغم نصوص الكتاب الأبيض استمرّت بتسريب الأراضي لليهود بقرارات من المندوب السّاميّ البريطاني.

في العامّ ١٩٣٨ أعلن تشرشل عن تأليف فرقة يهوديّة مسلّحة بضبّاطها وجنودها وسلاحها وعلمها اليهوديّ الخاص، وتمّ إمداد هذه الفرقة الّتي لم يعلن عنها بكلّ الأسلحة والذّخائر اللّازمة، وأعدّت لهذه الفرقة المعسكرات التّدريبيّة الّتي كان يتدرّب فيها الضّبّاط والجنود، ويقومون بتطبيقاتهم التّدريبيّة على القرى والبلدات العربيّة بحماية بريطانيّة.

وأعلن عن هذا الجيش في الحرب العالميّة الثّانية، وكان المارشال (ويفل) البريطانيّ القائد العامّ في الشّرق الأوسط، هو الّذي يقود الجّيش البريطانيّ في فلسطين خلال أعوام ١٩٣٨/١٩٣٧، وكان يعتقد أنّ مجرّد الإعلان عن هذا الجّيش سيدفع العرب للثّورة ضدّ بريطانيا، الّتي كانت بحاجة إلى الهدوء في المنطقة العربيّة حيث جيشها موجود، ويهددها (رومل) من ليبيا غرباً. ولذلك نصح القائد البريطانيّ رئيس الوزراء تشرشل بعدم تأليف الفيلق اليهوديّ، لكنّ تشرشل لم يأخذ بالنّصيحة، وأثبت في مذكراته ما يلي:

«لقـدّ تحدّيـت ويفـل، وكتبـت إلى الدّكتـور وايزمـان سـامحاً له بتأليـف ذلك الجّيـش، ولـم يتحـرّك كلـب عـربيّ واحد».

لقـدّ عاد هـذا الفيلـق الّذي صـار نـواة الجّيش اليهـوديّ إلى فلسـطين بعد انتهـاء الحـرب العالميّـة الثّانيـة، فقسـم منـه كان يقاتـل في بريطانيا ويتـدّرب فيها، والقسـم الآخر كان في فلسـطين تحـت العناية الفائقـة لجيش الاحتـلال البريطانيّ.

إجهاض الثّورة، ووقف الإضراب

لم تستطع القّوات البريطانيّة الموجودة على أرض فلسطين ولا التّعزيزات الّتي قدمت والّتي بلغت أكثر من عشرين الف جنديّ من إخماد الثّورة بكّل الوسائل العسكريّة الّتي لديها، فلجأت مجدّداً وكالعادة إلى الاحتيال بالأساليب السّياسيّة.

ففي ١٩ حزيران/ يونيو ١٩٣٦ ألقى وزير المستعمرات البريطانيّ أنذاك (أورمسبي غور) بياناً في مجلس العموم أعلن فيه عن عزم الحكومة إرسال لجنة ملكيّة خاصّة برئاسة (اللورد إيرل بيل) للتّحقيق في أسباب الإضراب... وكالعادة فقد أرسلت لجان التّحقيق إلى فلسطين، والّتي بلغ عددها أكثر من سبع لجان، حيث كانت محصلة عملها تصبّ في مصلحة تطبيق وعد بلفور لصالح اليهود.

رفض العرب التّعامل مع هذه اللجنة ؛ لأنّ رئيس اللجنة أعلن من البداية بأنّ اللجنة «لن تتعرّض لنصوص الانتداب الأساسيّة». وعلى أثر ذلك قام أمير شرق الأردنّ بعدّة اتّصالات مع اللجنة العربيّة العليا، وقال في إحدى هذه الاتّصالات: «مهمتي تنحصر في التّحقيق بينكم وبين الحكومة البريطانيّة لتتقابلوا وإياها عند نقطة يسهل عليكما فيها البدء بالمفاوضات، والحكومة على استعداد للتقدم خطوة إلى الأمام إذا قبل العرب التّقدّم خطوة من جهتهم».

وفي الأسبوع الثّاني من تشرين الثّاني سنة ١٩٣٦ أذيعت نداءات ثلاثة بتوقيع الملك عبد العزيز آل سعود، والملك غازي الأوّل ملك العراق، والأمير عبد الله أمير شرق الأردنّ، وجاء النّداء على النّحو التّالي:

«القدس -بواسطة رئيس اللجنة العربيّة العليا»، إلى أبنائنا عرب فلسطين، لقد تألّمنا كثيرا للحالة السّائدة في فلسطين، فنحن بالاتّفاق مع ملوك العرب والأمير عبد الله، ندعوكم للخلود إلى السّكينة حقناً للدّماء معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانيّة، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننّا سنواصل السّعي في سبيل مساعدتكم.

أذاعت اللجنة العربيّة العليا بياناً أعلنت فيه أنّها قررّت بالإجماع، وبعد استشارة اللجان القوميّة وموافقتها، أن تلبّي نداء أصحاب الجلالة ملوك العرب وسمو الأمير، وتدعو الأمّة العربيّة الكبيرة في فلسطين للخلود إلى السّكينة وإنهاء الإضراب و الاضطرابات ابتداءً من صباح الإثنين تشرين الأوّل ١٩٣٦. .. وهكذا توقّف الإضراب، لكنّ هذا الواقع لم يدم طويلاً، بل استمرّت الثّورة للسّنوات التّالية ٣٧، ٣٨، ١٩٣٩ حتّى بداية الحرب العالميّة الثّانية.

لم تتوقّف المعارك خلال السّنوات الثّلاث الّتي تلت الإضراب العامّ، وسقط العديد من القتلى في كلّ الأطراف، وبلغت الثّورة ذروتها في العام ١٩٣٨، ومع ذلك تضاعفت وسائل القمع والإرهاب الّذي تمارسه سلطات الاحتلال البريطانيّ، لكنّ ذلك ضاعف مِنْ جهود الثّوار؛ فأصبحوا يحرّرون المدن كما حصل في بئر السبع وطبريا وأريحا والقدس والخليل.

أصدرت سلطات الاحتلال البريطانيّ أحكاماً تعسفية شملت (٢٠٠٠) مجاهدٍ بالسّجن المؤبّد، وهدمت أكثر من خمسة آلاف بيت، وأصدرت حكماً بالإعدام لكلّ من يحمل رصاصة أو قطعة سلاح أو بندقية صيد، حتّى بلغ عدد الّذين أعدموا في سجن عكّا (١٤٨) شهيداً، وبلغ عدد المعتقلين لفترات مختلفة أكثر من خمسة آلاف. ومارست سلطات الاحتلال البريطانيّ كلّ أنواع التّعذيب

مثل كيّ الأجسام، وتقليع الأظافر، وهبر اللحم، واحراق اللحى والشوارب، وتسليط الكلاب الجائعة لتنهش لحوم النّاس.

رغم كلّ هذه الوسائل لم تصل إلى نتيجة، فجّربت وضع مكافآت لكلّ من يقدم (إخباريّة) تؤدّي إلى القبض على المجاهدين، ووضعت قوائم بأسمائهم والمبلغ الّذي سيقدّم مقابل ذلك، ولم تحصل قوّات الاحتلال على نتيجة. وبدأت الأسلوب القديم الجديد بالعودة إلى زعماء العرب، وإرسال اللجان وعقد المؤتمرات، ومن أهمّها مؤتمر المائدة المستديرة الّذي عقد في ٧ شباط/ فبراير / ١٩٣٩، وقد شارك فيه مندوبون عن مصر والعراق وشرق الأردن والمملكة السّعوديّة. وفي هذا المؤتمر تحدّث إلى جانب رؤساء الوفود العربيّة رئيس الوفد ا لفلسطينيّ ،

فقال:

«إنّ السّياسة الّتي تتبعها الحكومة البريطانيّة في فلسطين منذ العام ١٩١٨ قد أظهرت أنّ مخاوف العرب لم تكن وهميّة مطلقاً، وقد حرم العرب الاستقلال الّذي وعدوا به في معاهدة بريطانيا في ٢٤ تشرين الأوّل ١٩٢٥، وقد أقيمت في فلسطين إدارة ظلّت طوال السّنين العشرين الماضية تمارس حكماً مطلقاً كأيّة سلطة استبداديّة ديكتاتوريّة في كافّة نواحي الحكم من تشريعيّة وتنفيذيّة وقضائيّة، وبهذا حرم عرب فلسطين من أبسط حقوق الحكم الذّاتيّ».

كما قال رئيس الوفد الفلسطيني: «إنّ العرب لا يعترفون ولن يعترفوا بتصريح بلفور ولا بالإنتداب، فقد تضمّن الأوّل وعداً لم يكن من حقّ بريطانيا إعطاؤه بدون رضى العرب، أمّا الثّاني فهو مستند غير قانونيّ، إذ

تتعارض بنوده مع نصّ المادّة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، إنّ العرب يقفون ضدّ سياسة بريطانيا في فلسطين لثلاثة أسباب:

١- **إنكار الاستقلال الّذي وعد به العرب.**

٢- **إدخال جموع اليهود المهاجرين إلى فلسطين وهم غرباء في لغتهم وعاداتهم وآدابهم.**

٣- **سنّ القوانين الشّاذّه تحت الضّغط الصّهيونيّ، وتسهيل استيلاء اليهود على الأرض.**

الجّامعة العربيّة

لقـدّ تركـت الحـرب العالميّـة الثّانيـة آثارهـا على شـعوب العالـم، وكثـير مـن الدّول نالـت اسـتقلالها الفعـليّ مـن الإسـتعمار البريطـانيّ والإسـتعمار الفرنـسيّ، لكـنّ الدّول العربيّـة لـم تحـزم أمرهـا كامـلاً، وبقيـت بريطانيـا صاحبـة الكلمـة الأولى في هـذه الدّول والأنظمـة.

وللتبـاهي باسـتقلال الدّول العربيّة وبمباركة بريطانيا اجتمـع مندوبو كلّ من مـصر والعراق ولبنـان والمملكة العربيّـة السّـعوديّة وسـوريّا وشرق الأردنّ واليمن، وعقـدوا مؤتمرهـم الاول الّذي حمـل صفـة المؤتمـر التّحضـيري الأول الّذي عقـد في الإسـكندريّة في آذار/ مـارس/١٩٤٥، حيـث ولدت الجامعـة العربيّة محمّلة نفسـها حمايـة الشّـعب الفلسـطينيّ بإطـلاق العديـد مـن الشّـعارات الخاصّـة بفلسـطين، الأمـر الّذي دفـع العديد من الفلسـطينيين أن يعقـدوا أمالهم على الجامعـة العربيّة، لكـنّ الأيـام أثبتـت نقيض كلّ الأحـلام، وبقيـت الجّامعـة العربيّة البـوق الدّعائيّ والادّعائيّ للقضيّـة الفلسـطينيّة وحـتّى اليـوم، ولا شـكّ أنّ نظـام الجّامعـة العربيّة سـاهم في عـدم تقدّمها، فالقـرارت داخل الجامعة لا تتخـذ الا بالتصويت بالاغلبية المطلقـة -أي بالاجماع.

القضيّة الفلسطينيّة في الأمم المتّحدة، وسياسة بريطانيا في الهروب إلى الأمام!

قرار التّقسيم

تركت الحرب العالميّة أثرها على الدّولة العظمى بريطانيا، فلقدّ أنهكتها الحرب رغم أنّ الدّور الأساسيّ وقع على الولايات المتّحدة والاتّحاد السّوفياتي، وواجهت بريطانيا مشكلات كبيرة مع مستعمراتها وخاصّة الهند الّتي كانت تضّم باكستان المنضمّة إليها بنغلادش. كذلك واجهت مشكلات في مستعمراتها الأخرى، بل وأصبح نفوذها يضعف سواء في مصر أو إيران أو الخليج العربيّ. ولهذا كان لا بدّ من قوّة جديدة مؤثّرة لتستلم تركة بريطانيا الّتي بدأت تفقد مكانتها. وظهر ذلك واضحاً في فلسطين، فبعد تنفيذها لكلّ القرارات الخاصّة بتنفيذ وعد بلفور، وتسليح وتدريب اليهود، والضّغط على الفلسطينيين العرب حتّى لا يمتلكوا أيّة مقوّمات للمقاومة، واجهت ضغطاً عربيّاً حتّى ولو شكليّاً، وكانت الولايات المتّحدة جاهزة لإستلام دور بريطانيا في فلسطين، فبعد نهاية الحرب العالميّة الثّانية وبروز الدّور الأمريكي العالميّ. وفي ١٤/آب/أغسطس١٩٤٦، قام الرّئيس ترومان بتقديم خطّة لبريطانيا تفضي بتقسيم فلسطين بموجب الحدود الّتي اقترحها اليهود في ٥/آب/١٩٤٦.

حاولت بريطانيا إقصاء المسؤوليّة عنها، فعقدت مؤتمر لندن في ٩/ شباط/١٩٤٧، وحضره مندوبون عن العرب واليهود والبريطانيين، ورفضت مقترحات بيفن البريطانيّة من كلا الجّانبين.

وفي ١٨/ شباط - فبراير/١٩٤٧ أعلن بيفن وزير خارجيّة بريطانيا تسليم القضيّة إلى الأمم المتّحدة. وبالطّبع اتخذت بريطانيا نفس القرار في الجامعة العربيّة عبر موفدها إلى الجامعة العربيّة، والّذي كان هو صاحب التّأثير في قرارات الجّامعة العربيّة. ولهذا أعلن مجلس الجامعة العربيّة المنعقد في بلودان في سوريا قراره الّذي يشير إلى أنّ عدم التّوافق مع بريطانيا سيؤدّي إلى رفع القضيّة الفلسطينيّة إلى الأمم المتّحدة.

وبناءً على ذلك وفي ٢٨/نيسان/إبريل/١٩٤٧ عقدت الأمم المتّحدة جلسة في مقرّها في «فيل ساكيس» بناءً على طلب بريطانيا، وصاحب ذلك حملة صحفيّة تؤيّد المطالب اليهوديّة، وتتندّر على الوفد العربيّ، وتتهكّم عليه، وتهاجمه.

استمعت هيئة الأمم المتّحدة للخطباء العرب واليهود، وقد تحدّث عن اليهود بن غوريون الّذي كان يرأس الوكالة اليهوديّة آنذاك، وكذلك استمعت لممثّل اليهود في الولايات المتّحدة وايز الّلذان طالبا بالإعلان عن قيام دولة يهوديّة في فلسطين، وقد تبنّت الولايات المتّحدة هذا المطلب خاصّة بعد أن أصبح نظر اليهود وتوجّههم إلى الولايات المتّحدة هدفا، بعد أن اكتشفوا ضعف بريطانيا في الحرب العالميّة الثّانية وبروز الولايات المتّحدة لاعباً أساسيّاً عالميّاً.

وبعد مناقشات الّلجنة السّياسيّة في الأمم المتّحدة قررّت تأليف لجنة للتحقيق في قضيّة فلسطين، وتشترك في عضويّة الّلجنة إحدى عشرة دولة، ويمكن تقديم اقتراحات الّلجنة بعد بحثها وزيارتها فلسطين لإلقاء الضّوء على الواقع السّياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ آنذاك، وكذلك تأثير الدّول العظمى والقوى الفاعلة في ذلك الوقت، وجاء الاقتراح كما يلي:

تقسيم فلسطين إلى دولة يهوديّة ودولة عربيّة وتدويل القدس، بحيث تقوم الدّولة اليهوديّة على ٥٦,٤٧٪ من مجموع أراضي فلسطين وتبلغ هذه المساحة ١٥,٢ مليون دونم لكلّ مناطق فلسطين... يملك العرب منها ٣,٦ مليون دونم، حيث يملك اليهود ١,٣ مليون دونم، والباقي تملكه الحكومة وطوائف أخرى، وتشتمل هذه المنطقة المخصّصة للدولة اليهوديّة ٢٧٣ مدينة وقرية عربيّة يقيم فيها ٤٦٠ ألف عربيّ.

أمّا الدّولة العربيّة فتقوم على ٤٢,٨٨٪ من أراضي فلسطين وتكون منطقة القدس دولية تقوم على ٠,٦٥٪ من الأرض الفلسطينيّة.

وفي ١٣/تشرين ثاني/نوفمبر/١٩٤٧ أعلنت بريطانيا أنّها قررت إنهاء انتدابها على فلسطين ومغادرتها في ١٥/آيار/مايو/١٩٤٨، وفي ٢٩/تشرين الثّاني/نوفمبر/١٩٤٧ جرى التّصويت في الأمم المتّحدة، فكان اقتراح التّقسيم بأغلبيّة (٣٣) صوتاً ومعارضة ١٢ صوتاً وامتناع (١٠) أصوات، ومن المعروف أنّ الولايات المتّحدة بذلت جهداً مكثّفاً وضغطاً على عدد من الدّول الّتي كانت تعارض القرار للموافقة عليه، وخاصّة مندوبي هايتي وسيام وليبيريا، الأمر الّذي رجّح كفة نجاح القرار الّذي كان يتطلّب موافقة الأعضاء.

تداعيات قرار التّقسيم

كان الرّفض القاطع لقرار التّقسيم من قبل الجماهير الفلسطينيّة، وخرجت المظاهرات في كل مدن وقرى فلسطين منددّة بالقرار وتنادي برفض إقامة دولة يهوديّة على أرض فلسطين، وكذلك انطلقت مظاهرات في نفس الوقت في كلّ من مصر وسوريّا والعراق وشرق الأردنّ ولبنان واليمن والبحرين ودول المغرب العربيّ رغم عدم استقلالها.

وفي ٨/ كانون الاول -ديسمبر/ ١٩٤٧ إجتمع رؤساء الدّول السّبع المؤسسة لجامعة الدّول العربيّة وكذلك مندوب الهيئة العربية العليا بشخص أمين الحسينيّ، وقد صدر عن رؤساء الدّول العربيّة أو مندوبيها القرارات الآتيّة:

١- **التّقسيم باطل من أساسه.**

٢- **اتّخاذ التّدابير لإحباط مشروع التّقسيم ونصرة حقّ العرب.**

٣- **الوقوف بجانب إخوانهم عرب فلسطين ممّا يمكّنهم من الدّفاع عن أنفسهم لتحقيق استقلال فلسطين ووحدتها.**

كما اتّخذت جامعة الدّول العربيّة قرارات سرّيّة تتعلّق بالاستعدادت العسكريّة، وكان من القرارت السّريّة رصدّ مبلغ مليون جنيه إسترلينيّ، وعشرة آلاف بندقيّة للّجنة العسكريّة، وتجنيد ثلاثة آلاف متطوّع، بمن فيهم (٥٠٠) فلسطينيّ .

وتظهر الآن -وبعد هذه السّنوات الطّويلة على قرار التّقسيم- الحقائق الّتي كانت تحيط بالقرار، والّتي كانت تتناقض تماماً مع ما كانت الدّول العربيّة تعلن عنه.

كانت الدّول العربيّة تعلن وتقول شيئاً لجماهيرها، وكانت تعمل وتنسّق مع بريطانيا في الأمور كافّة، ويتفاجأ المرء الآن بعد الاطّلاع على مهزلة الأنظمة العربيّة الّتي كانت تشارك في قهر فلسطين والتآمر عليها، ومن هذه الأمور:

١- **الاتّفاق السّرّيّ بين الجّامعة العربيّة وبريطانيا الّذي سمح بموجبه (لجيش الإنقاذ) بالدّخول إلى فلسطين، والتّمركز في الأراضي المخصّصة للعرب بموجب قرار التّقسيم على أن لا يقوم بأي نشاط عسكريّ في القسم المخصص للدّولة اليهوديّة. والتزمت قيادة جيش الإنقاذ بهذا القرار حتّى في الحالات الّتي كان يتّعرّض فيها سكّان حيفا أو يافا للذّبح والطّرد على يد اليهود.**

٢- **رفضت دول الجامعة العربيّة واللّجنة العسكريّة الّتي شكّلتها بعد قرار التّقسيم الاقتراحات الفلسطينيّة بتسليح شعب فلسطين وتزويده بالقادة والخبراء العسكريين ليتمكن من مواجهة اليهود، وجاء الرّفض بناءً على اعتراض بريطانيا.**

٣- **إنّ سبب تشكيل جيش الإنقاذ كان لإستيعاب الشّباب العربيّ المتحمّس والمستعّد في فلسطين، ولهذا كان ضرورياً للحكومات السّيطرة على هؤلاء الشّباب كما هو الحال بالنّسبة لجيوشهم، كما أنّ تشكيل جيش الإنقاذ كان لمنع وصول السّلاح إلى الشّعب الفلسطينيّ.**

٤- **جرت مفاوضات بين رئيس وزراء شرق الأردنّ توفيق أبو الهدى وبريطانيا اتّفق فيها على ضمّ القسم المخصّص للعرب من فلسطين بموجب قرار التّقسيم**

إلى دولـة شرق الأردنّ، وأن لا يتعـرّض الجيش الأردنيّ لـلأراضي المخصّصة للدولة اليهوديّـة. وقـد أشـار إلى ذلك الاتفاق الجـنرال كلوب قائد الجيـش في شرق الأردن في مذكّراتـه، كمـا أشـار إلى ذلـك ألـبر نيـادر كلامتـون في تقريـر له إلى السّـفير البريطـانيّ في القاهـرة بتاريـخ ١٤/كانون الأول/ديسـمبر ١٩٤٧.

٥- جـرت مفاوضـات بـين الجنرال كلـوب (غلـوب) والهاجانـا -وهي القـوّة الرئيسـيّة في الوكالـة اليهودية- في شـهر شـباط/ فبرايـر/١٩٤٨ اتّفـق بموجبها أن لا يجـري قتال بين الجيـش العـربيّ الأردنيّ وبـين الهاجانـا عندمـا يدخـل الجيـش الأردنيّ إلى فلسـطين بعـد ١٥/ آيـار/ مايو/١٩٤٨، واشـترطت الهاجانا لذلك أن لا يدخل الجيـش الأردنيّ إلى القـدس، والـتزم كلـوب (غلوب) خمسـة أيـام لذلك.

٦- كان الجيـش العـراقيّ أقـوى الجيـوش العربيّـة، ومؤلّفـاً آنـذاك من أكثر مـن ثلاثين ألـف جنـديّ ودخـل في فلسـطين بعـد انسـحاب الجّيـش البريطـانيّ بخمسـة أيـام، وتواجـدت القـوّات العراقيّـة خارج فلسـطين في مناطـق شرق الأردنّ في الأتش فور (H4) والمفـرق وإربـد والغـور، وكانـت التّعليمات لهـذا الجيش كمـا هي التّعليمات للجيـش الأردنيّ، ولهـذا لحقـت بالجيـش العـراقيّ هزائـم في جنـين وقاقـون ورأس العين.

٧- كانـت كميّـة الاسـلحة والذّخائـر المقدّمـة مـن جامعـة الدّول العربيّـة للمقاتلـين الفلسـطينيين قليلـة جـدّاً وقديمـة ومعظمهـا غـير صالحـة للاسـتعمال. وبـكلّ وضـوح أنّ السّـلاح منع عن الشّـعب الفلسـطينيّ وقـوّات الجّهاد المقـدّس خوفاً من أن يعرقلـوا تنفيـذ قرار التّقسـيم.

وممّـا تجـدر الإشـارة إليـه أنّ هنـاك عقبـات كثـيرة وضعـت أمـام الكفـاح الفلسـطينيّ، فمثـلاً عندمـا تقـرّر في الجّامعة العربيّة تدريب الشّـباب الفلسـطينيّ

وتسليحهم في معسكر قطنّة في سوريّا بالقرب من دمشق تقدّم الجنرال كلايتون باسم بريطانيا بمذكّرة إلى الجّامعة العربيّة تعارض تسليح الفلسطينيين وتدريبهم، ومعتبرة ذلك «عملاً غير ودّي»؛ لأنّ بريطانيا لا زالت موجودة في فلسطين.

في هذا الواقع المرير كان هناك رجال يُشهد لهم بالعطاء والتّفانيّ، وتتوفرّ فيهم روح القيادة والتّضحية والإيمان بالنّصر، ومن هؤلاء الرّجال الّذين خالدون في ذاكرة التّاريخ والوطن، والّذين تتردّد أسماؤهم بين وديان فلسطين وقمم جبالها وسهولها، بل وفي كلّ بيت فلسطينيّ، هو القائد الفلسطينيّ عبد القادر الحسينيّ.

كانت مصالح الأنظمة العربيّة آنذاك تتقاطع وترتبط بالمستعمر البريطانيّ، وكان من سياسة بريطانيا نفي الزّعماء الّذين يبرزون بثقلهم وقوّتهم وقد أشرنا إلى ذلك، والقسم الآخر يتمّ توزيعهم على السّجون العربيّة ومنهم عبد القادر الحسينيّ الّذي غادر السّجن في العراق أواخر عام ١٩٤٦ متوّجهاً إلى القاهرة، ومن القاهرة بدأ يستعدّ للمعركة في فلسطين. فقام بالتّحرّك نحو ليبيا وقام بشراء الأسلحة الّتي تركها الألمان والإنجليز من مختلف الأنواع. كان يقوم بتجميعها في القاهرة ومن ثمّ تهريبها عبر غزّة والنّقب إلى جبال القدس والخليل ونابلس، حيث قواعد الهيئة العربيّة العليا الّتي أفرزت جيش الجّهاد المقدّس. كما قام عبد القادر بالاتّصال بالبدو المقيمين في الصّحراء الغربيّة المصريّة الّذين تجمّع لديهم كميّة كبيرة من الأسلحة بعد معركة العلمين الّتي هزم فيها رومل، وكذلك الأسلحة الإنجليزيّة الّتي وجدت في أرض المعركة على امتداد الصّحراء وحتّى ليبيا.

ورغم القوانين الصّارمة للبريطانيين، الّتي كانت تقضي بإعدام كلّ من

يملك قطعة سلاح، إلّا أنّه كان دائماً يوجد رجال هم أقوى من القوانين الظّالمة. وهنا لا بدّ من ذكر كلّ من عبد الرّحمن علي شحدة اللفتاوي، وإبراهيم أبو ديّه الّذي أشرف على نقل السّلاح من مصر إلى فلسطين، وحسين الكرد (أبو كاظم)، وعلي الجعبريّ (أبو شمس) وإبراهيم الطّبحيّ، وإدريس البكريّ ومحمّد كامل الفقيه، ووليد الأسديّ، وفوزي الطّبريّ... وهكذا كانت الخلايا القتاليّة تبنى بعد التّدقيق في كلّ واحد منهم، رغم وجود أعداد هائلة كانت تريد المشاركة في القتال، لكنّ السّلاح لم يكن متوفرّاً.

لا شكّ في أنّ القدس كانت قلب المعارك وروحها، والقتال في شوارعها لا يتوقف، حتّى أنّ الجثث كانت للعرب واليهود والإنجليز في شارع واحد في مكان واحد.

ولا أريد هنا أن أسرد كل المعارك ؛ لأنّ من أراد التّفاصيل فإنه يمكن الرجوع إلى الكتب المرجعيّة الّتي تناولت تلك الحقبة... ولكنني أحبّ أنّ اذكر (معارك القدس) الّتي كانت تعبيراً عن مشاعر القلوب، والّتي كانت قيادتها باب العمود، وحيّ واد الجّوز، وحيّ الشّيخ جرّاح، وحيّ المصرارة، وحيّ سعد سعيد، والحيّ اليهوديّ.

كانت المعارك تدور حول ساحة المسجد الأقصى المبارك حيث تتركّز أساطير المستعمرين على هذه السّاحات، وعلى قرية سلوان، وحيّ المغاربة وحوش الغزلان، وحوش الشّاي، وباب السّلسلة، وحارة الشّرف، والباشورة، ودير السّريان. وفي الوقت الّذي كان فيه رجال فلسطين يتسلّحون بالبندقيّة ذات الطّلقة الواحدة، كان اليهود يهاجمون بالأسلحة الرّشاشة الّتي كانت نادرة في أيدي الفلسطينيين.

في ٢٢/كانون أوّل/١٩٤٧ عاد عبد القادر الحسينيّ سرّاً من مصر إلى فلسطين، وحاولت اللّجنة العسكريّة والدّول المشاركة فيها منعه من العودة، لكنّه ظلّ مصرّاً عليها ففرضت عليه اللّجنة ثلاثة شروط، وهي:

١- **أن يكون وجوده ونشاطه في فلسطين مرتبطاً باللّجنة العسكريّة وخاضعاً لأوامرها.**

٢- **أن يكون مسؤولاً عن منطقة القدس فقط، ولا يمتدّ بنشاطه إلى مناطق أخرى.**

٣- **ألّا يقوم هو ورجاله بجمع التّبرعات من الأهالي.**

لكن هذه القيود لم تمنعه من التّحرّك باتجاه الخليل وقراها، وكذلك إلى رام الله. أمّا المعارك الرّئيسة عام ١٩٤٧ فقدّ كانت معركة القدس الأولى كما أشرت، ومعاركها هي:

- **معركة بيت صفافا.**
- **معركة لفتا وحيّ روميما.**
- **حصار الحيّ اليهوديّ في القدس القديمة.**
- **معركة حيّ القطمون.**
- **معركة كفار عتسيون الأولى.**
- **معركة بيت نبالا.**
- **معركة صوريف.**

- **معركة ظهر الحجّة.**
- **معركة بيت سوريك.**

بالإضافة إلى معارك المدن الأخرى كيافا وحيفا، وطبريا وصفد.

وفي تقرير بريطانيّ إلى الأمم المتّحدة ذكر عدد الخسائر في الفترة الواقعة بين ١٩٤٧/١١/٣٠ وحتّى ١٩٤٨/١/١٠ على النّحو التّالي:

المجموع (١٩٠٣) إصابة بين قتيل وجريح منهم:

- **(١٠٥٠) عربيّاً.**
- **(٧٥٠) يهوديّاً.**
- **(١٠٣) إنجليزياً.**

قرار التّقسيم... فجر معارك فلسطين

أوجـز هنـا الأحداث الّـتي وقعت بعـد صدور قـرار التّقسـيم، حيث يمكن العـودة إلى تفاصيـل هـذه الأحـداث في المراجـع التّاريخيّـة التّفصيليّـة والّتي أشـير إليهـا في بـاب المراجع الّـتي اعتمدت عليهـا والمصادر الّـتي دعمـت بالوثائق... ففي خـلال الفـترة الواقعـة مـا بـين ٢٩/نوفمـبر، وتشريـن الأوّل/١٩٤٧ وحـتّى ١٥/آيـار/ مايـو/١٩٤٨ جـرت الأحداث العسـكريّة والسّياسـيّة الآتية:

- **بدأت حرب المتفجّرات والمناوشات.**
- **الرّد على عمليّات التّدمير الّتي كان يقوم بها اليهود بالمثل.**
- **حرب المواصلات.**
- **تمّ تقسيم فلسطين إلى أربع قيادات عسكريّة.**
- **مرور أوّل دفعة من جيش الإنقاذ.**
- **مذبحة دير ياسين.**
- **الهجوم على مستعمرة النّبي يعقوب.**
- **معركة القطمون.**
- **الجّيش العربيّ الأردنيّ يهاجم مستعمرة جيشر.**
- **مأساة حيفا وخيانة الإنجليز.**

- **مأساة صفد.**
- **مأساة يافا.**
- **معركة كفار عصيون.**
- **معركة كفار عصيون الكبرى.**
- **معركة القسطل.**

لقدّ خاض الفلسطينييون المعارك في كلّ المواقع والمدن والقرى والطّرق الفلسطينيّة مع اليهود والبريطانيين في نفس الوقت رغم ضعف تسليحهم وقدراتهم كما أشرنا... لكنّني هنا أتوقّف عند معركة القسطل الّتي قادها الشّهيد البطل عبدّالقادر الحسينيّ... قائد الجهاد المقدّس، وابن القائد الكبير موسى كاظم الحسينيّ الّذي استشهد في معركة القسطل الخالدة.

إنّ كثيراً من النّاس يعرفون معركة القسطل وقائدها، لكنّ تفاصيل البطولات كانت محدودة الانتشار، فموقع قرية القسطل يقع على مرتفع يشرف على الطّريق الرّئيس بين القدس وتلّ أبيب ويتحكّم فيه، وتبعد القسطل عن القدس حوالي ستة كيلومترات.

لقد شكّلت قرية القسطل الحاجز القويّ بيد رجال الجهاد المقدّس، ومن هذا الموقع حاصروا الآلاف من اليهود، وخيروهم بين الإستسلام أو الموت، فكان اليهود يقومون بهجمات مضادّة ضدّ المواقع الفلسطينيّة بأعداد كبيرة لكنّها يائسة.

كان يسقط العديد من المهاجمين قتلى وجرحى، لكنّ اليهود استقدموا

تعزيـزات وأسـلحة رشّاشـة ومدفعيّـة وهاونـات، واسـتمرّوا في مهاجمـة مواقـع القسـطل بشـكلّ مسـتمرّ بهجمات جنونيّـة، وتمكّنـوا نتيجة لذلك في أوائل نيسـان من احتـلال القسـطل.

لقـد عاد عبـد القـادر الحسـينيّ يرافقـه أقـلّ مـن خمسـين رجـلاً إلى أرض القسـطل. وقـاد بنفسـه المعركـة، وهاجـم أقـوى موقـع في المواقـع الّـتي احتلّهـا اليهـود، حيـث تمكّن، وبشـكلّ أسـطوريّ ومخالـفٍ لـكلّ القواعد العسـكريّة، من إعادة تحريـر القسـطل، لكـنّ البطـل أصابتـه قذيفة من الأعداء فسـقط شـهيداً، واهتزت لشـهادته أرض فلسـطين وشـعبها... وسقطت القسـطل ثانية؛ لأنّ المدافعين عنهـا توجّهـوا إلى القـدس للمشـاركة في وداع قائدهـم.

وحـتّى اليـوم يرّدد مـن بقى حيّاً مـن جنود عبدّ القـادر تلك الملحمـة الخالدة/ معركة القسطل.

معركة القدس

لـم يتوقّـف القتـال في القـدس وفي كلّ أحيائهـا، ولـم يتّقـدّم جيـش الإنقاذ إلى القـدس تنفيـذاً للتّعليمـات البريطانيّة باسـتثناء الجيـش العـربيّ الأردنيّ بقيادة عبـدالله التـل، حيـث خالفَ بذلـك تعليمـات كلّـوب باشـا والقيـادات البريطانيّة الأخـرى. وبالإضافـة لرجال الجهـاد المقدّس الفلسـطينيّ انضمّ إليهـم رجال الجيش العـربيّ، ولهـذا لـم أتحـدّث عن مأسـاة القدس كمـا تحدّثت عن مأسـاة يافـا وصفد وحيفـا وغيرهـا مـن المدن الفلسـطينيّة الّـتي سـلّمها البريطانيون لليهود، فسـقطت تلـك المـدن، وتـشردّ أهلهـا شـمالاً وجنوبـاً وشرقـاً، بدعـم مطلـق مـن جيـش الإنتـداب البريطاني.

وضعـت القـدس تحـت إشراف دوليّ بنـاءً على القـرار الصّـادر عـن الجمعيّة العامّـة للأمـم المتّحـدّة في ٢٩/ نوفمـبر سـنة ١٩٤٧، كذلـك خضعـت لهـذا القـرار المناطـق المحيطـة بالقـدس الّـتي تمتـدّ من شـعفاط شـمالاً والعيزريّة شرقـاً وبيت لحـم جنوبـاً وقالونيّـة غربـاً، وقد رفـض العـرب المـشروع الدوليّ ودوليّـة القدس.

كان مقـرّراً أن تخضـع القـدس لنظام الوصاية الدّوليّة، على أسـاس أن تتشـكل إدارة موحّـدة للمدينة يشـترك فيها العـرب واليهود وممثلوالأمم المتّحدة، وتسـتند إلى مجلس استشـاريّ مشـترك وحاكم عامّ له صلاحيّات واسـعة تعيّنـه الأمم المتّحدة.

في هـذا الوقـت، وقبـل الانسـحاب البريطـانيّ ونهايـة الانتـداب سـيطر الفلسـطينيون على طريـق بـاب الـواد، وبهـذا اسـتكملوا حصـار القـدس. ولهـذا

قدّمت بريطانيا للأمم المتّحدة عدّة اقتراحات ومشاريع لتجنيب القدس ويلات الحرب، ورغم ضعف اليهود في المدينة إلّا أنّهم كانوا يشترطون أن يبقى الاتّصال بين القدس والسّاحل الفلسطينيّ مؤمّناً..!

أظهر العرب في نفس الوقت موافقتهم على تجنيب القدس الحرب من خلال تعيين رئيس مشترك لبلديّة القدس كان يمثّله (إسكرائي) الّذي شغل منصب سكرتير اللّجنة القنصليّة للهدنة سابقاً. كذلك حاز المندوب السّامي البريطانيّ على موافقة الجامعة العربيّة - كالعادة - في ٧/آيار/١٩٤٨، وكذلك وافق اليهود على الهدنة، وبذلك بدأ سريان الهدنة في ٨/ آيار- مايو/١٩٤٨ حتّى نهاية الانتداب في ١٩٤٨/٥/١٤. استطاع ممثّلو لجنة الهدنة القنصليّة التّمديد لفترة جديدة، حيث كانت هذه اللّجنة مكوّنة من قناصل فرنسا والولايات المتّحدة وبلجيكا.

تمّ الاتّفاق مع العرب واليهود على أن يحتلّ اليهود ما كان يعرف بمنطقة السّلام (C) وهي المنطقة الّتي تحيط بما كان يسمى العمارة (المسكوبيّة)، وهي عبارة عن مجمّعات بناها الرّوس أيام القيصريّة لتكون قواعد لاستقبال الحجّاج الرّوس في فلسطين. لقد كانت هذه القواعد موجودة في عدد من المدن ومنها أيضاً مدينة الخليل وتسمى كذلك بالمسكوبيّة، أمّا العرب فيحتلّون منطقتيّ السّلام (A) و (B) أي منطقة الكونيّة الألمانيّة وما حولها، ومنطقة جمعيّة الشبّان المسيحيين.

وكالعادة، كان اليهود يستغلّون الهدنة لكي يعزّزوا مواقعهم وقدراتهم... فما أن غادر الجنود البريطانيون القدس في ١٩٤٨/٥/١٤ حتّى خرق اليهود الهدنة، واحتلّوا ما كان بيد العرب من مواقع هامّة، وبالطّبع كان موجوداً بعض ضبّاط وجنود جيش الإنقاذ الّذين لم يسمح لهم بالبقاء، فلم يستطيعوا عمل أيّ شيء، وبقي ثقل

المعركة على رجال الجهاد المقدّس. كما استطاع اليهود احتلال أهمّ المواقع خارج أسوار المدينة القديمة، مثل معسكر اللنبي، ومعسكر العلميّة، ودير أبو طور، والنبي داوُد، والمسكوبيّة، والمستشفى الإيطالي، ونوتردام، والمصرارة، وباب العمود، وسعد وسعيد، والشّيخ جراح. ولم يبق بيد العرب إلّا باب السّاهرة ووادي الجوز.

وعندما اجتمع العرب ولجنة الهدنة والصّليب الأحمر أجاب اليهود إنّ الجماعات اليهوديّة المنشقّة هي المسؤولة عن ذلك، وهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً..! وبالطّبع فإنّ البريطانيين هم من قاموا بتسليم معظم المواقع لليهود وبمهاجمة أبواب القدس القديمة الّتي لم يتوفر لسكّانها إلّا القليل من البنادق حيث هاجم اليهود باب العمود، وباب الخليل، وباب الحديد، وباب النبي داوُد في محاولة لاقتحام المدينة الّتي تجمّع فيها أكثر من ستّين ألف فلسطينيّ، لكنّ أبطال الجهاد المقدّس، وشرطة المدينة من الفلسطينيين بقيادة المجاهد أحمد علي باشا، والقائد خالد الحسينيّ، وفاضل عبدالله استطاعوا صدّ هجمات اليهود المدججين بكلّ أنواع الأسلحة.

ومع وصول الكتيبة السّادسة الأردنيّة بقيادة عبدالله التل تعزّز الموقف العربيّ في القدس لكنّ الحيّ اليهوديّ كان شوكة في خاصرة المدينة القديمة، ولقد حاول كلوب تأخير تحرّك الكتيبة الأردنيّة معطياً الفرصة لليهود لكيّ يدخلوا القدس، لكنّ صلابة رجال الجهاد المقدّس أفشلت كلّ محاولات اليهود، عندما وّزعت سرايا الكتيبة الأردنيّة على أبواب المدينة القديمة لم يعد بامكان اليهود اقتحام المدينة رغم استماتتهم في الهجوم وخاصّة عند باب داوُد لفكّ الحصار عن الحيّ اليهوديّ، وتحوّل الحصار اليهودي للمدينة القديمة إلى حصار شديد للحيّ اليهوديّ.

لقـدّ حاولـت قـوّات الهاجانا والأرغـون الدّخـول إلى المدينة القديمـة من باب داوُد كمـا أشرنـا، دافعـة بأعداد كبـيرة وقوّات مدجّجة بالسّـلاح، وسـمح المقاومون عـن المدينـة بإدخالهـم إلى الحيّ اليهوديّ، ثمّ قامـوا بتعزيز القوّة مجـدّداً على باب داوُد، وهنا سـقط في أيـدي اليهـود المحاصرين والمقاومين لإنقاذهم... واشـتركت الأسـلحة العربيّـة كافّـةً في قصف الحيّ اليهـوديّ، فبعد أن كان الفلسـطينيون في وضع حصار أصبحـوا محاصريـن لليهـود الّذيـن أربكـت كلّ خطـط الافـراج عنهـم أو دعمهم، وأصبحـت أصـوات الطّلقات العربيّـة والزّغاريد وعبـارة الله أكبر تتدفّق شـلّال ماء ليـس له نهاية.

تمركـزت القـوّات العربيّـة عنـد أبـواب القـدس القديمـة كمـا أشرنـا، أمّا في بـاب داوُد فقـدّ تمركـزت القـوّات في ديـر الأرمـن الّذي تحـوّل إلى مركـز للقيادة العربيّـة، وبهـذا فقـد تعزّزت القـوّة عند بـاب داوُد، وفصلت حيّ الأرمـن عن الحيّ اليهـوديّ الّذي أصبـح حصـاره مطبقـاً. لقد تذكّـرت هـذه العجالة كيـف أنّ الأخ أبـو عمّـار رفـض رفضّـاً قاطعـاً أثنـاء المباحثـات في كامـب ديفيـد أن يتنـازل عن الـحيّ الأرمنيّ..!

لقـدّ ضرب اليهـود بقـوّة قبـل حصارهـم الـحيّ الأرمـنيّ، فقـد اعتـبروا أنّ الأرمـن حلفاء للعـرب، فـأراردوا الانتقام منهـم... ونتيجة لتمركز القـوّات العربيّة في حيّ الأرمـن تمّـت حمايتهـم مـن بطش اليهـود، الّذيـن كانوا قـدّ تكبّدوا سـابقاً خسـائر فادحـة سـواء القتـلى أو الجـرحى أو تدمـير بيوتهم.

لـم يستسـلم اليهـود للوضـع القائـم، فاسـتجلبوا مقاتلـين مـن البالمـاخ معزّزيـن بـكلّ أنواع الأسـلحة الهجوميّـة نحو بـاب داوُد، واعتقـد المهاجمون أنّ النّـصر حليفهـم لأنّ الرّد عليهـم كان ضعيفـاً. وصمتت أصوات الأسـلحة العربيّة

حتّى اقترب رجال البالماخ نحو باب داوُد، ووصلوا إلى منطقة قريبة، وأصبحوا في مرمى البنادق والقنابل اليدويّة للمدافعين عن البوابّة، وكانوا يحملون لغماً لتدمير البوابّة.

انطلقت كلّ الأسلحة نحو القوّة المهاجمة، وانفجر اللّغم في أجسادهم الّتي تناثرت في محيط البوابّة، وسقط للقوّة المهاجمة ٦٠ قتيلاً.

وكان اليهود حريصين على أن لا تبقى لهم أيّة جثة كجزء من عقيدتهم... نقلت الجثث إلى الأحياء اليهوديّة، وشعروا بالهزيمة، واستحالة فكّ الحصار عن الحيّ اليهوديّ.

إنّ سرّ الحيّ اليهوديّ يكمن في وجود حوالي ١٨٠٠ شخص في هذا الحيّ الّذي يشكّل حواليّ ربع المدينة القديمة، وجميع بيوت الحيّ هي تابعة للوقف الإسلاميّ ولعائلات مسلمة. لقد وُجِدَ في الحيّ أغلبيّة من المقاتلين الّذين ينتمون إلى اليهود المتدينيين والأرغون والشتيرن والهاجانا.

كان الحيّ يخضع لحماية الجيش البريطانيّ حتّى انسحابه لحماية اليهود في الحيّ من هجوم العرب عليه، وفي نفس الوقت كانوا يدخلون لهم الذّخائر والأسلحة، وكان الإنجليز يمنعون العرب من تفتيش السّيارات والحمولات الدّاخلة إلى الحيّ... وهذا ساعدهم على الصّمود لمدّة أكثر من ثلاثة أشهر.

كما أنّ الحيّ لا يوجد به شوارع عريضة، بل هو عبارة عن طرق ضيّقة جدّاً كالدّهاليز والزّواريب، والأزّقة الّتي لا يمكن للسّيارات والآليات دخولها، وبيوت الحيّ قديمة جدّاً، وليس فيه إلّا المستشفى الّذي بني حديثاً فيه.

لـم تكن السّـيطرة متاحة على الحيّ اليهـوديّ، فقد حـرّم حاخاماتهم والوكالة اليهوديّة عليهم الإستسـلام.

وهكـذا، فقـد عـزّزوا دفاعاتهم في كلّ بيت وحـارة وزقاق... ومـا إن تنتهي من الوجهـة الدّفاعيـة الأولى حـتّى تجد الواجهـة الدّفاعيّة الجديـدة وبنفس القـوّة. لهذا اتّخـذ العـرب قـرار تدمـير كلّ البيـوت بالألغـام والقنابـل بشـكلّ متسلسـل، وهذا الأمـر أربـك اليهـود، فالتّدمـير يدفن مـن في المكان تحـت الـرّدم. كانـوا يهربون إلى الخلف فكـسرت قـوّة دفاعاتهم.

إنّـني أجـد نفسي هنـا مجـبراً على ذكر أولئـك الأبطـال الّذين تقدّمـوا لتدمير دفـاعات اليهـود، فقد قـاد القـوّة التّدميريّـة المجاهد فـوزي القطـب، ولحقتها فرقة أخـرى بقيـادة مـن رجـال الجّهـاد المقـدّس على رأسـهم حلمي باشـا وأحمـد الظّاهر الدّيـك. لقـد كان رجال الجهـاد المقدّس قـد احتفظـوا بكمّيات كبيرة مـن الألغام الّـتي أحضرهـا عبد القـادر الحسـينيّ من الصّحـراء المصريّـة واللّيبيّـة، وكذلك من الغنائـم الّـتي اسـتولى عليهـا المجاهدون مـن مسـتودعات الجيش البريطـانيّ أو من المواقـع الّـتي زرعت فيهـا. كانوا يتقنـون فكّ هذه الألغـام وتركيبهـا وزراعتها، وكان ذلـك مفاجـأة لجيش الانقـاذ وللجيش الأردنيّ، وصدمـة هائلة لليهـود... إضافة إلى ذلـك فقد تسـاقطت قذائـف الهاونـات على الحيّ اليهـوديّ الأمـر الّذي حرمهم من النّـوم، حيـث كانـوا موجوديـن في أضيق الأماكـن في حالة من الذّعـر، إذ لم يكن باسـتطاعتهم الدّفـاع؛ لأنّ أيّـة حركـة لهـم أصبحت مكشـوفة من عمليّـة التّدمير ومـن نقـاط المراقبـة والقـوّة الموجـودة في جبـل الطّـور الّـتي كانـت تسـقط كلّ من يتحـرّك قتيلاً.

تكدّسـت الجثـث عندهـم، وأصبـح الحيّ بشـكل ما يكتـبُ مقدمـةً لمقبرة

للموجودين فيه. لم يكن الحيّ اليهوديّ هو وحده الّذي يتعرّض للهجوم بل كانت مواقع اليهود في منطقة شنلر، والمسكوبيّة، ورحافياً، والوكالة اليهوديّة، ومحطة توليد الكهرباء تتعرّض لقصف مدفعي من الضبّاط الصّغار في الجيش العربيّ الأردنيّ، رغم تدخّل الضبّاط الإنجليز وكلّوب نفسه. لقد توقّف إطلاق المدفعيّة، إلّا أنّ الضبّاط العربّ تمردّوا وواصلوا قصفهم ممّا أدّى إلى تدمير الكثير من المواقع والمنازل لليهود الّذين لم يعد بإمكانهم التّحرّك أو التّفكير في الهجوم على بوابة داوُد وتحرير الحيّ اليهوديّ.

لقد دافع اليهود يائسين. لكنّ الهدنة وكالعادة كانت تنقذهم وتشكّل مخرجاً لهم. لقدّ استعرت معركة القدس، واستعملت فيها الأسلحة المتوفرة كافّة، فمن باب الإسباط، والرّوضة والهوبيين، وكذلك حارة النّصارى وحارة الأرمن إلى مناطق الوجود اليهوديّ استعر قتال شرس، ولم تكن الآليات تستطيع الدّخول في أحياء المدينة القديمة، بل كانت تدخل سيراً على الأقدام؛ بسبب ضيق الشّوارع -كما أشرنا- وكثرة الأدراج... ولهذا كان يسقط الشّهداء في معظم المواقع، لكنّ المجاهدين لم يتوقّفوا، وتساقطت مواقع اليهود في الشّمّاعة، وعمارة طنّوس، وفندق الملك داوُد، وكذلك الأحياء اليهوديّة المقابلة لباب الخليل.

أصبح اليهود في مأزق كبير في الحيّ اليهوديّ، وحاولوا عبر الصّليب الأحمر إخراج المدنيين من النّساء والأطفال من الحيّ، لكنّ محاولتهم باءت بالفشل؛ لأنّ المجاهدين كانوا على علم أنّ العسكريين يريدون التّخلّص من عبء المدنيين، لكي يتفرغوا للمواجهة. كان الوضع ميئوساً منه نظراً لأنّ سقوط الحيّ اليهوديّ سيؤثّر على مواقع اليهود كافّة، ولم يكن أمامهم إلّا الاستسلام.

حـاول المقاتلون مـن اليهود التّحصّـن في الكنيس الكبير المعـروف بـ «قدس الأقـداس هورفـا» لمعرفتهـم أنّ العـرب لا يقصفون بيوت العبـادة لأيّـة طائفة، فتمّ إنذارهـم عـبر الصّليـب الأحمر لإخـلاء الكنيس فرفضـوا، فقامت فرقـة الألغام في الجهاد المقـدّس بتدميره.

لقـد كان يـوم ١٩٤٨/٥/٢٨ يومـاً قاسـياً على اليهـود في الـحيّ، فقـد استسـلم اليهـود في الـحيّ، واستسـلم قائـد الهاجانـا موشـيه روزئـك، وكذلـك مختـار الـحيّ الادون مردخـاي فـون جارثـن.

لقـد انتـصرت القـدس، فقد كانـت معركتهـا هي عنـوان الضّمـير والأخلاق والانتمـاء والـرّوح العربيّـة لكلّ فلسـطينيّ ومسـلم وعـربيّ... لقد توحّـد في معركة القـدس الدّم الفلسـطينيّ والاردنيّ والعـربيّ.

قتـل في معركـة القـدس أكثر مـن (٣٠٠) يهـوديّ، وجـرح العديد منهـم، ودمّر الـحيّ اليهـوديّ، وطهّـرّت القدس مـن اليهود، ولـم يبقَ فيها يهـوديّ واحـد لأوّل مرّة منـذ ألـف عام رغـم أنّ اليهود أبدوا قدرة كبـيرة على القتال والهجـوم والدّفاع. لكـنّ روح الجهـاد والإيمـان بالقدس وفلسـطين كان أقـوى وأكبر.

انتـشر القتـال على كلّ أرض فلسـطين، وتشـكّلت مجمـوعات صغـيرة للدّفاع عـن المـدن والقـرى الفلسـطينيّة بإمكانـات محـدّدة. كانـت بريطانيـا والعصابات الصّهيونيّـة تحـاصر الفلسـطينيّ، وكان الحصـول على السّـلاح أمـراً صعبـاً. ورغـم ذلـك فقـد تمكّـن المجاهـدون مـن الإغارة على بعـض المعسـكرات البريطانيّـة، واسـتولوا على السّـلاح منهـا ومـن الجنـود أنفسـهم، وكانـوا في بعـض الأحيـان يسـتولون على بعـض المسـتودعات كمـا حصـل في مدرسـة البوليـس في منطقـة

الرّملـة؛ ففي مسـاء ١٤/ آيـار/١٩٤٧ هاجم المجاهدون تلك المدرسـة واسـتولوا على (٤٠٠) بندقيّـة، وثمانيّـة رشّاشـات سـفن و٦٠ ألـف طلقـة للبنـادق.

قامـت بعـض مجمـوعات المجاهديـن الموزّعـة على مناطـق مختلفـة بمهاجمـة طـرق مواصـلات العـدوّ، وقامت مجمـوعات أخـرى بالتّدمـير والأعمـال الفدائيّة.

وهنـا أحـبّ أن أشـير إلى بعـض الأسـماء الّـتي كان لهـا حضور كبـير كان في قيـادة الشّـباب الفسـطينيّ، ومنهـم: عبـد القـادر الحسـينيّ، وحسـن سـلامة، وأبو ديّـة، ومنيـب الدّاسـوقيّ، وخـالد الحسـينيّ، وبهجت أبـو غربيّـة، وقاسـم الرّيماويّ، ومحمّـد النّجـار، وحافظ بـركات، وصلاح الحـاجّ منير، وصبـحي أبو غربيّـة، وفوزي قطـب، وسـبق أن ذكـرت في الحديث عن معركة القسـطل والقدس والـحيّ اليهوديّ فيهـا عـن مأسـاة حيفـا ويافا وصفـد، وسـأتناولها الآن بإيجـاز لإيضـاح ذاك الكـمّ الهائـل من الغـدر والتّآمـر البريطـانيّ والعجز العـربيّ في تلـك المعارك..!

معركة حيفا

اتّفقت القيادة البريطانيّة الموجودة في حيفا بقيادة الجنرال ستكول (Stokwell) مع اليهود على تسليم حيفا لهم من خلال إعلان الحكومة البريطانيّة بأنّها قرّرت البقاء في حيفا لغاية ١/ آب/١٩٤٨ في الوقت الّذي قررت فيه إجلاء القوّات البريطانيّة وإخلاء فلسطين في ١٥/ آيار/١٩٤٨.

قام الجنرال (ستكول) بإبلاغ السّلطات العربيّة في حيفا بأنّه قرّر إخلاء جميع المراكز الّتي تحتلّها القوّات البريطانيّة، والّتي كانت تفصل بين العرب واليهود، وكان ذلك بتاريخ ٢١/ نيسان/١٩٤٨، حيث لم يترك للعرب مجالاً أن يستفيدوا أو يجهّزوا أنفسهم، وسمح لليهود باحتلال مراكز البريطانيين كافّة الّتي كانت مواقع هامّة وأساسيّة مخصّصة في المدينة.

بدأ اليهود من هذه المواقع بمهاجمة المناطق العربيّة، ولم تكن هناك قوّة عربيّة قادرة على صدّ هذه الهجمات الوحشيّة، فدبّ الرّعب بين سكان حيفا، وأخذوا يهجرون منازلهم وسهّل الإنجليز لهم عمليّة النّزوح، كما منعوا أيّة مساعدة عربيّة تصل إليهم، ونزح أكثر من (٧٠) ألف فلسطينيّ باللجوء إلى لبنان، مشكّلين بهذا النّزوح أكبر عدد من اللاّجئين آنذاك.

مأساة يافا المكرّرة

لقد شكّلت المقاومة الفلسطينيّة العربيّة في يافا تأثيراً كبيراً على اليهود وضعفاً لقوّة مستوطناتهم في تل أبيب. فقام الإنجليز بتزويدهم بمدافع المورتر بكميّات كبيرة حيث تمّ استعمالها بكثافة في الهجوم على يافا. وكما فعل الإنجليز في حيفا فقد انسحبوا من يافا قبل الموعد الّذي أعلنوا عنه، وسلّموا مواقع المعسكرات والتّحصينات الخاصّة بالجيش البريطانيّ للوكالة اليهودية، وانسحبوا في ٢٣/ نيسان/١٩٤٨ وليس في ١٥/آيار/١٩٤٨ كما أعلنوا سابقاً.

لم تكن العائلات في يافا معتادة على هذا الكمّ الهائل من قذائف المدفعيّة الّتي كانت تتساقط على المدينة، فأربكهم ذلك، وبدأوا بالهجرة إلى غزّة وإلى شرق الأردنّ وهكذا... سلّمت يافا لليهود كاملة.

كان تسليم المدينتين أكبر صفقة على حساب المقاومين العرب.. حيث كانت المدينتان تشكّلان أكبر مدينتين.

كان البريطانيّون يعلمون أنّ بقاء هاتين المدينتين في يد العرب، سيكون حجر عثرة في وجه قيام دولة إسرائيل كما كان مخطّطاً لها، وخاصّة أنّ المقاومة الفلسطينيّة الّتي كانت على أشدّها في مناطق عديدة من فلسطين دعت الولايات المتّحدة في أواخر آذار/١٩٤٨ إلى تقديم اقتراح بوضع فلسطين تحت نظام وصاية الأمم المتّحدة، الّذي كان معروفاً آنذاك، حيث أنّ كثيراً من الدّول كانت تخضع لنظام الوصاية الخاضع للأمم المتّحدة، ولم يبقَ في العالم نظام وصاية إلّا في جزيرة قريبة من اليابان.

كان ردّ البريطانيين على الاقتراح الأمريكي الإسراع في الإنسحاب من المدينتين وتسليم مواقعهم وأسلحتهم لليهود.

ولم يكتفِ الإنجليز بتسليم حيفا ويافا بل قاموا كذلك بتسليم صفد وطبريا أيضاً.

لقد كانت طبريا المدينة العربيّة الّتي تواجد فيها اليهود، فتمّ تهجير الفلسطينيين، وفرض عليهم الإجلاء في ١٧/ نيسان/١٩٤٨.

المؤامرة في صفد

كانت صفد معقلاً للهيئة العربيّة العليا، وكان الحضور الأكبر فيها للحاجّ أمين الحسينيّ، حيث كان الفلسطينيون يشكّلون ثلاثة أرباع سكّان المدينة، ويمتلكون ثلاثة أرباع أراضيها. شكّل موقع صفد الاستراتيجيّ أهمّية قصوى في حكمها في منطقة الجليل بأكملها، وإشرافها كذلك على منطقة الحولة الّتي أقيم على أرضها العديد من المستوطنات اليهوديّة.

ونظراً لأهميّة موقع صفد فقد قامت القوّات العربيّة الّتي كانت في بداية تشكّلها بقيادة إسماعيل صفوت باشا، بتشكيل سريّتين تحت إمرة الرّئيس ساري فنيش للدّفاع عن مدينة صفد، ولم يتوفّر للسّريتين أسلحة ثقيلة أو مناسبة لموقع المعركة ومكانها. ورغم ذلك فقد قاومت السّريّتان وبتنسيق مع قوّات الجّهاد المقدّس لمدّة تزيد عن أربعين يوماً بالأسلحة الخفيفة والذّخائر المحدودة، والّتي كان بعضها غير صالح للاستعمال، أو كانت قديمة كما هو الحال في تسليح الجيش، المصريّ الّذي زوّد بأسلحة فاسدة ارتدّت على الجيش، وكانت بريطانيا واليهود على علم بذلك. وخلال الأربعين يوماً قتل العديد من أفراد السّريتين والمدافعين، ولم ترسل قيادة جيش الانقاذ بديلاً لهم، وقد أرهق هذا الوضع المقاتلين الّذين كانوا لا يتحرّكون من مواقعهم لا ليلاً ولا نهاراً؛ فقد كانوا ينامون ويأكلون في نفس الموقع والمكان... كان المقاتلون يتناوبون للحصول على قسط من النّوم أو الرّاحة.

استنجدّ قائدّ السّريتين بالقيادة العامّة لجيش الإنقاذ الّذي جدّد وعوده

بتقديم الدّعم، ولكنّ ليس بالأسلحة والذّخائر أو المدفعيّة بل بستين رجلاً لم يسبق لهم القتال أو استعمال الأسلحة، والّذين تمّ جمعهم نظراً للحماس الوطنيّ والجّهاديّ، حيث كان كلّ واحد منهم يريد أن يقوم بواجبه المقدّس.

وصلت هذه المفرزة من الرّجال بعد ثلاثة أيّام من المشيّ على الأقدام؛ نظراً لأنّ العدّو كان يسيطر على كلّ طرق المواصلات المؤديّة إلى صفد، كان أفراد المفرزة مرهقين جدّاً، وقام قائدّ الحامية بتوزيعهم على المواقع مع معرفته بعدم قدرتهم على استعمال السّلاح، وجهلهم أيضاً بشوارع المدينة وأزقّتها، وبالطّبع كانت كلّ أخبار الحامية تصل لليهود، سواء من البريطانيين أمّ اليهود الموجودين في صفد، وبذلك أعدّ اليهود هجومهم وبكلّ أنواع الأسلحة، ومنها المدفعيّة.

وبعد ثلاث ساعات من وصول هذه المفرزة بتاريخ ٩/ آيار/١٩٤٨ إلى صفد، ونظراً لمعرفة العدّو بخريطة المدينة وطرقها ومواقع دفاعاتها، ومع الظّلمة الحالكة استطاع العدّو أن يتوغّل داخل المدينة الّتي لم تستطع حاميتها صدّ تقدّمه، أو معرفة الاتّجاه الّذي كان يأتي منه أو كان يتحرّك من خلاله.

أكمل العدّو حصار الحامية الّتي دافعت حتّى ساعات الفجر الأولى، وفي منتصف اللّيل هرب قائدّ القوّات الرّئيس ساري معتقداً أنّ الحامية الضّعيفة أبيدت أو استسلمت، وترك المدينة، وبقيت الحامية تقاوم أربعة أيّام، ثمّ انسحبوا بعد أن نفذت ذخيرتهم.

لقدّ كانت صفد من أهمّ المواقع العربيّة المحصّنة، ومن أهمّ مواقع فلسطين، أمّا سقوطها: فكان من أسبابه:

- **أنّه لم تكن هناك خطط للدّفاع عن المدينة، بل كانت كلّ الخطط عبارة عن أفكاراً ارتجاليّة للمدافعين، في حين كانت خطط العدوّ مرسومة بدقّة عسكرية وأمنية متناهية.**

- **لم تكن الحامية العربيّة مجّهزة من ناحية التّسليح والتّدريب وقليلة العدد أيضاً، ولم تول قيادة جيش الانقاذ ذلك أيّة أهمّيّة.**

- **لم يتوفّر السّلاح للحامية، فقد كانت أسلحتهم عبارة عن بنادق قديمة، ولم يكن لديهم أيّة قنابل يدويّة اللّازمة لحرب الشّوارع أو أيّة مدافع، في حين كان يمتلك العدّو تلك الأسلحة وبكميات كبيرة.**

- **لم يتمّ تأمين أيّة وسيلة اتّصال بين المقاومين، وحتّى اللاسلكيّ والخطوط الهاتفيّة كانت مقطوعة بسبب الفوضى وعدم الاعتماد على قرار مركزيّ.**

لجأ معظم سكّان صفدّ إلى سوريا، مرافقين بقايا المقاتلين من جيش الإنقاذ العائد إلى هناك، واستولى اليهود على كلّ موقع وبيت في المدينة الّتي كانت شامخة شموخ أعالي قمم فلسطين.

حاول الفلسطينيون بإمكاناتهم البسيطة مقاومة العدّو الّذي يمتلك كلّ الإمكانات، وكانت النّتيجة أنّهم استطاعوا الحصول على قرار الأمم المتّحدة بالتّقسيم رغم الظّلم والألم النّاتج عن هذا القرار.

ولأنّ العقيدة والفكر آنذاك لم يسمح بتبني فكرة التّقسيم لأنّ فلسطين هي عربيّة بروحها وعقيدتها وأرضها وشعبها وتاريخها وحاضرها... إلّا أنّه يمكن الوقوف عند قرار التّقسيم وإعادة التّأهيل والاستعداد من جديد للمقاومة، رغم أنّ العرب قرّروا هم أيضاً رفض قرار التّقسيم، وتنادوا لتشكيل جيش الإنقاذ

لتحرير فلسطين الّذي أضعف مقاومة الفلسطينيين، وطلبوا من الفلسطينيين أن «يقفوا مكتوفي الأيدي» حتّى يحرّر جيش الإنقاذ فلسطين..!

لقد كشفت معركة فلسطين عورات الأنظمة العربيّة وجيوشها، وكانت أوّل العورات الّتي انكشفت هي عورة الجيش المصريّ الّذي كان جيش الملك فاروق/ جيش النّظام. كانت أوامر قيادة جيش مصر في معركة فلسطين التّقدّم إلى غزّة ومنها إلى المجدل، حيث تمّ تقسيم الجيش إلى قسمين: قسم إلى الشّرق نحو عراق سويدان والفالوجة وبيت جبرين والخليل، وقسم إلى الغرب نحو بيت دراس، وأسدود... وهكذا شهد الإعلام المصريّ أكبر أكذوبة في تحرير فلسطين من أجل امتصاص ردود فعل الشّعب المصريّ والأزهر، والّذي كان يشير إلى تقدّم للجيش المصريّ للدّفاع عن فلسطين وحمايتها من العدوان.

وفي وسط هذا التّقدّم الفارغ فرضت الهدنة على الجيوش العربيّة، فتراجعت بدون سبب، وتركت المجال أمام اليهود لاحتلال الأرض الفلسطينيّة. ومن المثير أنّه خلال فترة الهدنة كانت الأوامر المشدّدة تطلب الالتزام الدّقيق ببنود الهدنة.

وبناء على ذلك سمح النظام الملكي للقوافل اليهوديّة أن تعبر النّقب من الشّمال إلى الجنوب عبر الخطوط المصريّة لتموين مستعمرات الجنوب وفي حراسة القوّات المصريّة... ومن المضحك، المبكيّ أنّ هذه القوافل كانت مؤمّنة المرور، ولا يتمّ تفتيشها. كان تصريح المرور يتمثّل بكلمة شرف من السّائق الصّهيونيّ وبأن يقول: «إنّ حمولة سيارتي هي لبن أو قمح أو سكّر» وهي في واقع الحال سيارات محمّلة بالأسلحة والذّخائر.

انتهت فترات الهدنة على الجبهات المختلفة، وتمّ إخلاء الّلد والرّملة،

وانسحب الجيش الأردنّيّ بأوامر من كلوب باشا، وحوصر الجيش المصريّ في الفالوجة وعراق المنشيّة، ولم يتقدّم أيّ طرف عربيّ للمساعدة في فكّ الحصار عنه. كانت قيادة القوّات المحاصرة تطلب العون والإمداد، وكان الجّواب أنّ الدّبابات تحت الدّهان أو هي في ورشة الطّلاء.

وبناء على هذا الوضع قامت «إسرائيل» بإجراء اتّصالات مع رئيس وزراء مصر آنذاك (إسماعيل صدقي) ورئيس مجلس الشّيوخ (حسين هيكل) ورئيس الدّيوان الملكيّ (إبراهيم عبد الهادي).

كانت الاتّصالات تجري بسرّية بالغة عن طريق (إلياس ساسون) السّكرتير الشّرقيّ للشعبة السّياسيّة في الوكالة اليهوديّة، (يعقوب وايزمن) المقيم في مصر وهو شقيق أوّل رئيس لدولة إسرائيل. كان للملك فاروق طرقه الخاصّة والسّريّة مع الياس ساسون، فقد كانت «إسرائيل» تدخل إلى الأوساط المصريّة عبر الرّشاويّ، والتّهديدات، والجاسوسيّة، والنّساء، والصّحافة المصريّة المأجورة، والجّمعيات المصريّة الصّهيونيّة في مصر، والعملاء من كبار المسؤولين. كان الهدف أيضاً تعتيم الوقائع أمام الشّعب المصريّ، ووقف الحملات المصريّة الإعلاميّة عن التّحريض ضدّ إسرائيل.

وفي نفس الوقت تمّ في لوزان في ديسمبر/١٩٤٨ لقاء بين أعضاء اللجنة التّوفيقيّة الدّوليّة للأمم المتّحدّة، والّتي كانت تضمّ (الولايات المتّحدّة، وفؤاد عمّون من لبنان، وعدنان الأتاسي من سوريا، وفوزي الملقي من الأردنّ، واليهود «إلياس ساسون، ودكتور إيتان، وجدعون روفائيل).

لقد جرت المحادثات بين المشاركين من أجل التّوصّل إلى حلول توفيقيّة

كانت تهدف إلى فرض (السّلام الإسرائيليّ). وقد تمّ تغيير المندوب المصريّ بزوج شقيقة الملك فاروق (زوج الأميرة فوزيّة إسماعيل/ شيرين، وذلك بناء على طلب أمريكيّ!.

لولا هذا الغدر الغربيّ لما حدث ما حدث في فلسطين في عام ١٩٤٨، ولما اندلعت ثورة مصرّ عامّ ١٩٥٢... وهنا نشير إلى قرار مجلس الأمن الصّادر في ٢٩/ أيار- مايو/١٩٤٨ الّذي يقول في مقدّمته في المادّة الأولى منه:

«رغبة في وقف الأعمال العدائيّة في فلسطين دون الإخلال بحقوق ومطالب العرب واليهود أو مراكزهم، يدعو المجلس الحكومات والسّلطات ذات الشّأن إلى أن تأمر بوقف العمليّات العدائيّة المسلّحة لمدّة أربعة أسابيع».

كلّف مجلس الأمن الكونت فولك برنادوت لأن يكون الوسيط في تنقيذ قراره، وكذلك أختيرت جزيرة رودوس مقرّاً لإقامة الكونت برنادوت، والّذي تلخّصت توجهاته على النّحو الآتي:

- **تقسيم فلسطين إلى عضوين يجمعهما (اتّحاد).**
- **تحديد الحدود بمعرفة الطّرفين المعنيين على هذا التّقسيم الّذي أقرّته الجّمعيّة العامّة في ٩/نوفمبر ١٩٤٧.**
- **تكليف (الاتّحاد) بدعم المصالح الاقتصاديّة المشتركة، وتنسيق السّياسة الخارجيّة والدّفاع المشترك.**
- **تحديد الهجرة على أساس طاقة العضو على استيعاب المهاجرين.**

- **يترك للدّول العربيّة أن تقرّر مصير الأراضي العربيّة الفلسطينيّة بالتّشاور مع سكّانها.**

- **بالنّظر للعلاقات الاقتصاديّة والجغرافيّة والسّياسيّة بين المنطقة العربيّة في فلسطين وشرق الأردنّ فإنّ هناك من الأسباب القويّة ما يحمل على ضمّ هذه الأراضي إلى شرق الأردنّ على أن تعدّل الحدود المتاحة للدّول العربيّة.**

- **ضمّ منطقة النّقب إلى الأراضي اليهوديّة.**

- **ضمّ منطقة الجليل الغربيّ إلى الأراضي اليهوديّة.**

- **ضمّ القدس إلى الإقليم العربيّ مع حماية الأماكن المقدّسة.**

- **وضع القدس تحت إشراف الأمم المتّحدة.**

- **إنشاء ميناء حرّ في حيفا.**

- **بحث مركز يافا مستقبلاً.**

لقد كان هذا التّصوّر مبنيّاً على أساس أنّه يجب أن يعترف العالم العربيّ أنّه قد أصبح هناك في فلسطين دولة يهوديّة ذات سيادة قائمة قويّة تدعى (إسرائيل) تمارس سلطاتها غير منقوصة في جميع الأراضي الّتي تحتلها، وأنّه ليس هناك مجالٌ للاعتقاد بأنّها لن تعمّر طويلاً.

كان هذا واضحاً في حماية المصالح الصّهيونيّة وتقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهوديّة.

وصدر قرار مجلس الأمن في نوفمبر ١٩٤٨ يمدّد فيه الهدنة ويطلب

سـحب القـوّات إلى مواقعهـا في ١٤/أكتوبـر ١٩٤٨ أيّ بعـد أن سـقط النّقـب في أيـديّ اليهـود.

وفي ١٦/نوفمـبر صـدر قـرار مجلـس الأمـن الّذي يؤكـد قراراتـه السّـابقة بشـأن الإقامـة وتنفيـذ الهدنـة... وهكـذا بـدأت النّكبـة مـع توقيـع اتّفاقيّـات الهدنـة بـين الدّول العربيّـة وإسرائيـل.

الهدنة بين مصر وإسرائيل

وقّعت مصر مع إسرائيل اتّفاقيّة الهدنة في رودس في ٢٤/شباط- فبراير١٩٤٩ تحت عنوان استجابة مصر لقرارات مجلس الأمن، ونزولاً عند الوساطة الأمريكيّة الّتي أشادت بجيش مصر الباسل..!! الّذي حمل العبء وحده في القتال..؟!

وقّعت مصر كأوّل دولة عربيّة الاتّفاقيّة بصيغة التّفاوض المباشر (وإن كان تحت إشراف الأمم المتّحدّة) للوصول إلى هدنة دائمة رغبة في تمهيد الطّريق للانتقال من الهدنة الحاليّة إلى سلام دائم في فلسطين. وقد تكونت الإتّفاقيّة من إثنتي عشرة مادّة.

كان من الموقّعين على اتّفاقيّة الهدنة عن مصر: محمّد سيف، ومحمّد الرّحمانيّ، وعن إسرائيل والتر ايتان، وميخائيل يادين وإلياهو ساسون. أمّا محمود رياض، الّذي تولّى وزارة الخارجيّة في عصر عبد النّاصر وفيما بعد الجّامعة العربيّة فقد كان أوّل رئيس للجنة الهدنة المشتركة الّتي انبثقت عن اتّفاقيّة الهدنة.

وفي هذه الأثناء أدارت الأوساط الصّهيونيّة حملة إعلاميّة قويّة في مصر تدعو إلى توقيع اتّفاقيّة أو معاهدة صداقة وسلام مع إسرائيل من أجل عزل مصر عن العرب، وهذا ما حقّقوه في كامب ديفيد ١٩٧٧، حيث أصبح ابن إلياس ساسون أوّل سفير لإسرائيل في القاهرة بعد خمسة وثلاثين عاماً من حلم أبيه.

اتّفاقيّة الأردنّ وإسرائيل

بعد شـهرين مـن إعلان مصر وقف عملياتها العسـكريّة، بـدأت المفاوضات العلنيّـة، ووقـف العمليـات العسـكريّة بأمر من الملـك عبد الله الّذي تلقّى رسـالة مـن (بوش شـاريت وزيـر خارجيّة إسرائيـل آنذاك) يشـكره فيها على قـراره، حيث أشـار إلى أنّ منطقة النّقب ليسـت موضـوع بحث بين الحكومـة الأردنّيّة وإسرائيل؛ لأنّ منطقـة النّقـب هي على حـدود إسرائيـل ومصر... كمـا أنّ منطقـة العقبة تخصّ الأردنّ وإيـلات لإسرائيل وبـدون أيّة اعتراضات مـن كلا الطّرفين..!

وفي ٣ /نيسـان- إبريـل ١٩٤٩ وقّـع الأردنّ اتّفاقيّـة الهدنـة مـع إسرائيـل في رودس. وقـد ضـمّ الوفـد الأردنّيّ المتباحث بشـأن الهدنة كلًّا من: توفيـق أبو الهدى رئيـس الحكومـة، وسـعد الخفني وزيـر الدّاخليّـة، وفوزي الملـقي وزير الدّفـاع، أمّا الوفـد الإسرائيـلي فتكون مـن الدّكتور إيتان وكيـل وزارة الخارجيّـة، وعضويّة بريجا ياويـن رئيس العمليّات الحربيّـة، وكولونيل دايان كبير العسـكريين في وفد رودس. وقـد جـرت المباحثات في الشّـونة حـتّى لا تكون تحـت عيون رجـال الإعلام.

اتّفاقيّة الهدنة بين لبنان وإسرائيل

وقّعت اتّفاقيّة بين لبنان وإسرئيل في ٢٣ /آذار / مارس١٩٤٩ تحت عنوان «إعادة السّلم الدّائم إلى فلسطين»(أيضاً). ومن الملاحظ أنّ الاتّفاقيّة بين لبنان وإسرائيل لم توقّع في رودس كما هي الحال مع مصر والأردنّ.

الهدنة بين سوريا وإسرائيل

كانت سوريا آخر الدّول الموقّعة على اتّفاقيّة الهدنة مع إسرائيل، وكذلك اقتنعت العراق بحكم عدم وجود حدود لها مع فلسطين وطالت فترة المفاوضات بين الطّرفين حتّى ٢٠ /يوليو/ تمّوز ١٩٤٩ وأيضاً بدأت صيغتها «في سبيل التّمهيد لعودة السّلام في فلسطين».

استغلت إسرائيل توقيع اتّفاقيّات الهدنة فعزّزت هجومها على مواقع الفلسطينيين في القدس وقبية ونحّالين وغزّة وخان يونس، وبالطّبع لم تعبأ لأيّة انتقادات؛ لأنّها كانت تعرف أنّها لا معنى لها، وهي في حقيقتها جوفاء.

ظهرت مشكلة «اللاجئين/ عنوان النّكبة الأوّل»... وصدرت عن الأمم المتّحدة مجموعة من القرارت حول ذلك أهمّها:

- **قرار من الجّمعيّة العامّة في ١١/ ديسمبر/١٩٤٨ بانشاء لجنة توفيق من ثلاث دول تكلّف ضمن مهامها ببحث حلاً للآجئين.**
- **قرار في ١٩/ ديسمبر/ ١٩٤٨ بشأن المساعدات الماليّة والاستجابة لنداء الوسيط.**
- **قرار في ٨/ ديسمبر ١٩٤٩ يدعو إلى ضرورة الاستمرار في تقديم الإعانة للآجئين الفلسطينيين بغية تلافي المجاعات، وانتشار البؤس والشّقاء بينهم، ودعم الأمن والاستقرار، وإنشاء هيئة لإغاثة اللآجئين الفلسطينيين وتشغيلهم وهي وكالة الغوث .**

- صدر قرار في ١٧ نوفمبر ١٩٥٠ من مجلس الأمن بضرورةالعناية السّريعة بمشاكلّ العرب الفلسطينيين المطرودين.

- صدر قرار في ٢٠/ ديسمبر ١٩٥٠ بشأن الإعانات والتّبرعات لهيئة الأمم المتّحدة لإغاثة وتشغيل لاجئي فلسطين.

- صدر قرار في ٢٦/ يناير/١٩٥٢ بشأن التّعبير عن الأسف لعدم تنفيذ القرارات الخاصّة بإعادة اللآجئين الرّاغبين في العودة، وتقدير التّعويض العادل والمناسب لممتلكات اللآجئين الّذين لا يرغبون في العودة.

- صدر قرار في ١ نوفمبر ١٩٥٢ بشأن اعتمادات نفقات الإغاثة.

- صدر قرار في ٨ نوفمبر «بعد ملاحظة» أنّ حالة اللآجئين لا تزال مصدر قلق ويطلب الحصول على أموال أكثر.

- صدر قرار في ٢/ ديسمبر ١٩٥٥ يطالب وكالة الإعانة بالتّشاور مع لجنة التّوفيق للتّنسيق بشأن إيجاد مشروعات تضمن تشغيل عدد ملائم من اللآجئين.

- صدر قرار ٤/ ديسمبر/١٩٥٥ يؤكّد القرارت السّابقة لأنّه لم يحدث تقدّم ملموس في برنامج اللآجئين.

- صدر قرار في ٢٨/ شباط/ فبراير-١٩٥٧ بشأن تكاليف مشروعات الإعانة.

- صدر قرار في ١٣/ ديسمبر/١٩٥٧ يعبّر عن الأسف «أنّ إجراءات العودة والتّعويض لم تنفذ بعد، وأنّه ليس هناك تقدّم ملموس في البرنامج... وأنّ الجّمعيّة العامّة للأمم المتّحدة ترى في أنّ موقف اللآجئين ما يزال يهدّد بالخطر.

- صدر قرار في ١٢/ديسمبر ١٩٥٨ بشأن الحالة غير المرضية لوكالة الإعانة.

- صـدر قـرار في ٩/ ديسـمبر ١٩٥٩ يقـول: «يلاحـظ مـع القلق الشّـديد أنّه لـم تتم اعادة اللآجئـين إلى وطنهـم أو تعويضهـم... ويطالب ببـذل المزيد مـن الجّهود..»

- صـدر قـرار في ٢/ ديسـمبر/١٩٦١ يقـضي.. «وإذ تـدرك الجمعيّـة العامّة مـع مزيد من الأسـف أنّـه لـم تتـمّ إعادة اللآجئـين إلى بلادهـم أو تعويضهـم.. أنّـه لـم يحـدث أيّ تقـدّم جوهـريّ في البرنامـج... لذلـك يكـون وضـع اللآجئين مـازال غير مسـتقر».

معركة النّاصرة وسقوطها

هي مدينـة يسـوع، هي النّـاصرة المذكـورة في كلّ كتـب التّقديـس، وهي المرجع الثّالـث حيـث الحضـور والمباركة والعشـاء الأخـير بعد أولئـك القادمـين من بلاد فـارس الّذيـن يباركون ويقدسّـون ويحملون تحـت عباءاتهم المزركشـة النّبـوءات... هي النّـاصرة الّـتي تتجّـه إليهـا أنظـار القادمـين مـن الغـرب ومـن الـشّرق، وهي النّـاصرة المكملـة للثّالـوث المبتـدئ مـن بيت لحـم إلى أورشـليم حيث فسـاد القوم وإشراكهـم وثقافتهـم للـرّوميّ المحتلّ، (وحـتّى قطيع أغنام منتـشرة في الخليل وبيت لحـم والنّـاصرة) ولهـذا أدفـع نفـسي لأخفّـف كلّمـاتي وحـزني، وفي نفـس الوقـت أسـترجع ذلـك العنفـوان الممتـدّ على سلسـلة جبال النّـاصرة حتّى كتيب المسـيح في وسـطها.. ولا يمكنـني أن أغفـل معركة النّاصرة والتأثـر عليها، وهي المقدسّـة أرضاً وشـعباً وسـماء وهـواء وروحاً تطـوف بها.

فـفي الخامـس عشر مـن أيّـار (مايـو) ١٩٤٨ انسـحبت القـوّات البريطانيّة من مدينـة النّـاصرة، وكان لقيـادة جيش الجهاد المقـدسّ موقعـاً هامّاً في النّـاصرة وطبريا الّـتي ذكرنـا. كان يقـود تلك السّرايا الشّـيخ توفيق إبراهيـم، وبعد قـرار الأمم المتّحدة تقسـيم فلسـطين في ١٩٤٧/١١/٢٩ بدأت الاشـتباكات والمناوشـات بين العـرب واليهود في منطقـة النّـاصرة وقراها، واتسـعت تلك المناوشـات حتّى أصبحت معـارك، وكانت قيـادة جيش الجهـاد المقدسّ متمركـزة في مدينة النّـاصرة، ولم يكـن هنـاك أكثر من سريـة واحـدة للدفـاع عـن المدينة، أمّـا أهـل القـرى المحيطة بالنّـاصرة، فقـد كانوا يملكـون بنادق ليسـت أوتوماتيكيّة أو رشّاشـة، بـل كانت بنـادق ذات طلقة واحدة.

ولكن تمّ تجميع رجال تلك القرى في مجموعات، وجرى تدريبهم وتنظيمهم في مجموعات قتاليّة للدّفاع عن قراهم إذا ما هاجمهم العدوّ، وقد تمّ توزيع هذه المجموعات على قرية (معلول)، (اكسال)، و(دبورية)، وكذلك في قرية عرب الصّبيح، وقرية الشّجرة، حيث شكّل هذا التوزيع حلقة حول مدينة النّاصرة، بحيث لا يستطيع العدوّ تخطيها، كما تمّ ترتيب خطّة للدّفاع عن المدينة من المتطوّعين المشاركين، وتمّ إعداد الخطط لإيصال الامداد إلى القرى فيما لو هاجمها العدوّ.

بدأت الاشتباكات في أواخر شهر آذار (مارس) ١٩٤٨ في قرية الشّجرة، حيث تقدّم العدوّ بمصفّحتين لمهاجمة القرية، فتصدّى لها رجال الشّجرة. والتحقت بقوّة الشّجرة مجموعات المجاهدين، حيث دفعت المهاجمين إلى الاندحار والانسحاب إلى القلعة الّتي كانوا يحتمون بها، وكانت نتيجة المعركة هذه شهيدين وخمسة جرحى من الفلسطينيين، وعشرات القتلى من اليهود وأحد عشر جريحاً.

وفي ١٩٤٨/٤/٨ هاجمت سرية يهوديّة بلغ عدد أفرادها حوالي مائة جندي (عرب الصبيح). احتلّت القوّة المهاجمة معظم منازل القرية والتجأ الباقون إلى قرية (عين ماهل)، لكن مجموعة من رجال الجهاد المقدّس بقيادة (ابي عاطف) تصدّت للمليشيات اليهودية المسلحة، كما قامت مجموعات أخرى بالالتفاف حولهم والتّعامل مع القوّة اليهوديّة الّتي انسحبت نحو المستعمرة القريبة في المنطقة، تاركة خلفها أسلحتها وعتادها وكمية من الرّشّاشات وأجهزة اللاّسلكي، كما سقط عدد كبير من القتلى والجرحى بينهم.

وحسب الموعد الّذي حدّده البريطانيون للانسحاب من مدينة النّاصرة

فقد خرج الجيش البريطانيّ من المدينة في ١٥/ أيار/ مايو/ ١٩٤٨، فسارعت قوّات الجهاد المقدّس ومناصريه الانتقال إلى سرايا الشّرطة، واتّخذت منها مقرّاً لها، أمّا القوّات اليهوديّة فقد تموضعت في المرتفعات المطلة، وبدأت تطلق النّار من أجل جسّ نبض القوّة العربيّة ومعرفة قدراتها، وكذلك لاستنزاف هذه القوّة وذخيرتها. لكن هذه القوّة هاجمت المواقع اليهوديّة، وأبادت بعضها، وقطعت الطّريق عليها في طريقها إلى مستعمرة «بلفوريا». وبعد ذلك لم يحاول اليهود مهاجمة القرى المحيطة بالنّاصرة.

وفي ٢٥/ أيار/ مايو/١٩٤٨ تقدّمت قوّات يهوديّة مصفّحة قادمة من مستعمرة (نهلال) نحو قرية المجيدل، فتصدّى لها المقاومون الفلسطينيون، ودمروا إحدى المصفّحات فانسحبت القوّة.

وهنا يمكن رسم الخريطة الحربيّة للنّاصرة وما حولها على النّحو الآتي:

١- **الحامية المتمركزة في النّاصرة: وهي حامية الجيش المقدّس.**

٢- **سرية محمّد الصّفوريّ: ومركزها صّفوريّة.**

٣- **جيش الإنقاذ القادم من لبنان باتجاه فلسطين، حيث وصل إلى ترشيحا ومجد الكروم.**

٤- **الحاميات المحليّة الّتي ذكرنا من القرى العربيّة، وأهمّها قرية لوبية الّتي كانت تمتلك (٣٠٠) بندقيّة و(١٠) رشّاشات، وكذلك ترشيحا الّتي كانت تمتلك (١٠٠) بندقية ورشّاشين.**

وعندما علم اليهود أنّ جيش الإنقاذ دخل إلى الأرض الفلسطينية وأنّه

يتجـه إلى النّـاصرة لقطـع طريق (العفولة- بيسـان)، ويعـزل الجليل بـأيّ ثمن، عن بقيـة أجـزاء فلسـطين، صمّمـوا على إحباط هـذه الخطة بـأيّ ثمن، فقـرروا مهاجمة قريـة لوبيـة، والاسـتيلاء على طريـق (النّـاصرة- عيلبـون)، لمنـع القـوّات العربيّـة مـن الوصـول إلى النّـاصرة. لكـن «لوبيـة» كانـت قوّيـة بالرّجـال المدافعـين عنهـا، فمعظمهـم كان لديـه خـبرة قتاليّـة جيّدة.

بـدأ اليهـود هجومهـم برتلين مـن المصفّحات، أحـد الرّتلين قدم مـن طبرية، والرّتـل الآخـر مـن قرية «الشّـجرة» تسـندهم مدافع هـاون عيار (٦ملـم) من قرية «معـذر» واسـتمرّ هجـوم اليهـود عـشر سـاعات ولـم يتمكنوا مـن إحـراز أيّ انجاز أو اخـتراق حـول القريـة، وجـاءت في هـذا الوقـت مجمـوعات فلسـطينية لإسـناد ومسـاعدة قريـة لوبيـة بالإضافـة إلى فصيلـين مـن سريـة النّـاصرة بقيـادة الملازم محمّـد عورتـاني، وفصيـل مـن صّفوريّـة بقيـادة الرائد نمر محمـود، وانتهـت المعركة وغنـم المجاهـدون ثـلاث مصفحـات سـلموها لجيـش الإنقـاذ، الّذي وصـل بعـد انتهـاء المعـارك بقيادة الرائد سـعدون، وتمت ملاحقـة فلول اليهود حتّى مسـتعمرة الشّـجرة، والّـتي كان بالإمكان الدّخول إليهـا وتحريرها لولا صـدور الأمر بالتوقف؛ لأنّ الهدنـة أعلنت مسـاء اليوم نفسـه.

انـصرف كلّ مـن العرب واليهـود خلال أيـام الهدنـة الأولى إلى تقوية الخطوط الدّفاعيّـة، وبينمـا كان قـادة جيـش الإنقاذ منصرفـين إلى إقامة الولائم هنـا وهناك، كان اليهـود يقومـون بدراسـة الجبهـة مـن النّـواحي كافة، وإعـداد الخطـط المفصلة للمرحلـة المقبلة.

وفي الليلـة السـابقة لانتهاء الهدنة قام اليهود الموجودون في مسـتعمرة الشّـجرة بهجـوم مفـاجئ مـن مواقعهـم على مواقـع جيـش الإنقـاذ في الجهـة المقابلـة، حيـث

وجـدت سرية جيـش الإنقاذ بقيـادة الضّابط العـراقيّ «حمودة» حيث اسـتطاع اليهود دفـع السّريـة للتّراجـع إلى الخلـف، واحتلـوا مواقعهـا الدّفاعيّـة. وفي الصّبـاح حاول قـادة جيـش الإنقاذ «مدلـول» والمـلازم « قدسي» الهجـوم على مواقع اليهود لاسـترداد مـا فقـدوه، لكنّ الفوضى السـائدة في صفوفهـم، وترك الأمـور «لقدرة قـادر»، وعدم تجانـس القـوّات الّـتي ألحقـت بجيـش الإنقـاذ مـن متطوّعـين سـوريين وعراقيـين ومصريـين لم يسـبق لهـم القتـال أو التـدرب على السـلاح، أفشـلت الهجـوم العربيّ العتيد.

ولـم تسـتطع هـذه القـوّات العربيّـة مـن إحـراز أيّ تقـدّم، أو الاسـتيلاء على مواقـع العـدوّ رغـم اسـتمرار الهجـوم عـدّة أيام سـقط فيهـا العديـد من الشّـهداء، حيـث استشـهد في هـذه المعركة الملازم «حمـودة» والمـلازم «عبد الرحيم محمـود» وهو الشـاعر الفلسـطينيّ المناضـل المجاهـد المعـروف، وهـو من عنبتـا قضـاء طولكرم، وسـبق أن شـارك في ثـورة عام ١٩٣٧، وثـورة رشـيد علي الكيـلانيّ عام ١٩٤١ في العراق، وهـو صاحب:

سأحمل روحي على راحتي والقي بها في مهاوي الردى

فإمّا حياة تسرّ الصّديق وإمّا ممات يغيظ العدى

وفي هـذه المعركـة جـرح القائـد «مدلـول»، وحل مكانـه « الرّائـد عامر» وهو ضابـط ركـن، الّذي أرسـل الملازم أكـرم الدميري مـن الجيش السّـوريّ للإشراف على المعركـة، لكنّـه جـرح أيضـاً في اليـوم الثّاني وثبتـت القوّة بـدون قائد.

وزاد الطـين بلّـه أن قامت المدفعيّة السّـوريّة بقصف مواقع اليهـود بالمدفعيّة، لكـن سـقطت قذيفتـان على الفصل المتقـدّم فقتلت جميـع أفـراد الفصيل، أضف

إلى ذلك قيام اليهود بقصف المواقع العربيّة في «المجيدل» بمدافع الهاون «٦ بوصة»، حيث منعوا إيصال أيّة مساعدات إلى قرية الشّجرة «واحتلّوا بهجوم مدرّع»، «شفا عمر» خلال ساعتين؛ لأنّ «فوج العرب» التّابع لجيش الإنقاذ بقيادة شكيب وهّاب انسحب منها، ثمّ تقدمت مدرّعات العدوّ نحو صّفوريّة، وراقبت كلّ المنطقة المحيطة.

وفي يومي ١٦، ١٩٤٨/٧/١٧ قامت قوّات العدوّ بالهجوم على «المجيدل» واحتلوها، ولغّموا الطّريق الموصل إلى النّاصرة، وقاموا أيضاً باحتلال قرية «كلّ العرب»، وقصفوا صفورية بالطّائرات وكذلك معظم المراكز في النّاصرة، حيث كانت الطّائرات تغير على مواقع المجاهدين، وكان يتبعها قصف بالمدافع.

وفي ١٩٤٨/٧/١٨ ركّز العدوّ نيران مدافعه على مدينة النّاصرة. وتقدم اليهود بعد الظّهر من صفورية بعد احتلالها إلى النّاصرة في رتل من المدرّعات « شرمان» ومدرّعات «وملر»، وقابلتها مدرّعات جيش الإنقاذ برشاشاتها فلم تؤثّر فيها. واستطاعت مدرّعات العدوّ أن تدمّر المدرّعات العربيّة واحدة تلوى الآخرى، ثمّ دخلت مدينة النّاصرة بعد معركة لم تستمرّ أكثر من عشرين دقيقة، وبذلك عزلت القوّات العربيّة الموجودة في النّاصرة والمجيدل عن بقيّة القطاعات العربيّة، وأصبح القطاع الجنوبيّ من الجليل الممتدّ من كفر كنّا إلى لوبية ساقطاً عسكرياً ولا يصلح للدفاع ولا يجوز بقاء القوّات فيه.

معركة كفار عصيون

كان لصدى معارك يافا وحيفا وصفد وقعاً سلبيّاً على المناضلين الفلسطينيين والعرب، فقد ظهر تآمر بريطانيا واضحاً وجليّاً؛ فقد كانت القوّات البريطانيّة تزوّد اليهود بالأسلحة اللازمة بعد التّدريب الكامل، ولهذا جاءت معركة كفار عصيون ردّاً بسيطاً على الهزائم والانتكاسات السّابقة.

تقع مستعمرة كفار عصيون اليهوديّة على تلال ما بين القدس والخليل، وقد تمّ تحصين هذه المستعمرة تحصيناً قويّاً لأنّها تقع في منطقة عربيّة خالصة. كان دور هذه المستوطنة (المستعمرة) قطع الطّريق الّذي يمتدّ بين القدس والخليل وغزّة أمام القوافل المختلفة التّجاريّة وغيرها.

لم يكن سهلاً الاستيلاء على هذه المستعمرة وتحريرها بعد أن قام اليهود بالاستيلاء على (دير الشّعار) المشرف على الطّريق الرّئيسة، فلقد شكّل ذلك واقعاً خطيراً، إذ أصبح بإمكان اليهود التّمدّد، وفصل منطقة الخليل عن القدس.

استنفرت الخليل رجالها، واجتمع المئات منهم وكان كلّ واحد منهم يحمل سلاحه الخاصّ. تقدّم الرّجال في ١٩٤٨/٥/١٠، وكان الليل قد ارخى سدوله، فحرّروا (دير الشّعار) وهرب اليهود، وبدأوا يستنجدون بالمستعمرات المحيطة بالقدس.

انتشر رجال الخليل على كلّ التّلال الغربيّة من المستعمرة، وفي هذه الأثناء وصل إلى موقع المعركة مائة جندي من الجيش العربيّ الأردنيّ، وأعيد ترتيب الحركة... وهاجم رجال الخليل وجنود الجيش العربيّ المستعمرة، وعندها أحسّ

اليهود أنّ الأمر جديّ، وأنّه يختلف عمّا وعدهم به الجّيش البريطانيّ، فكان دخول القوّة العربيّة صاعقاً فرض على اليهود رفع الأعلام البيضاء... لكنّ اندفاع الجّنود ورجال الخليل قضى على اليهود كافّة باستثناء ثلاثة منهم، أمّا المدنيون من اليهود فهربوا إلى المستعمرات القريبة.

انتهت عمليّة كفار عصيون في السّاعة الثّانية عشرة ظهر يوم ١٩٤٨/٥/١٣، وبناء على ذلك فقد رفعت المستعمرات المجاورة والقريبة من كفار عصيون الأعلام البيضاء، وقرّرت الاستسلام بوساطة الصّليب الأحمر وفق الشّروط الآتية:

١- **تسليم السّلاح للعرب.**

٢- **أخذ الرّجال أسرى حرب.**

٣- **تسليم النّساء والأطفال والعجزة للصّليب الاحمر، وقد وافقت كذلك الوكالة اليهوديّة على هذه الشّروط.**

وهكذا، كانت معركة كفار عصيون نموذجاً رائعاً بعيداً عن جيش الإنقاذ، ونصراً كبيراً رفع من معنويات الرّجال المجاهدين.

ويمكن تصنيف المجاهدين الفلسطينيين الّذين التحقوا تحت قيادة جيش الجهاد المقدس، وهم:

- **الصّنف الأوّل**: المجندون تحت السّلاح ليكونوا قوّة متحرّكة ضاربة مستعّدة للعمل، فهؤلاء كانت قيادة الجيش تقدّم إليهم السّلاح والعتاد، وتدفع لهم مرتّبات شهريّة متواضعة.

- **الصّنف الثّاني**: المجاهدون الّذين جهزوا بالسّلاح والعتاد، وأعدّوا للنّجدة عند المعارك؛ ليكونوا قوّة احتياطيّة وراء خطوط القتال، فهؤلاء كانت تعطى لهم المخصّصات المالية القليلة لتسكين احتياجاتهم المتواضعة.

- **الصّنف الثّالث**: المجاهدون المقيمون في القرى، فهؤلاء يشتركون في المعارك الّتي تقع في مناطقهم أو في جوارها، وتمدّهم الهيئة ببعض السلاح والعتاد وفقاً للحاجة والاستطاعة.

لقد طالب الفلسطينيون وجيش الجهاد المقدس من الجيوش العربية وما سمي بجيش الإنقاذ البقاء على حدود فلسطين دون دخولها؛ لدعم الفلسطينيين، ومساعدة المقاتلين عند الضّرورة بالسّلاح والعتاد، كما قامت قيادة الجيش بإرسال (١٠٠٠) شاب للتدريب في معسكر قطنه في سوريا. لكنّ الأمر لم يدم طويلاً، فاستعملت قيادة جيش الإنقاذ عكس ما يريده الفلسطينيون.

الجّبهات العربيّة بعد الانسحاب البريطانيّ

تعمّـدت أن لا أدخـل في تفاصيـل المعـارك في فلسـطين في عاميّ ١٩٤٨ و١٩٤٩؛ لأنّ هـذه المعـارك أثبتـت أنّ الدّول العربيّـة لـم تكـن دولاً مسـتقلّة، وأنّ قرارهـا السّـياسيّ والعسـكريّ لـم يكـن بيدهـا، فمعظمـه كان بيـد بريطانيـا مـن خلال ضبّاطهـا وقياداتهـا الّـتي كانـت تحكـم هـذه الدّول ولو من خلـف سـتار. وبالتّالي فـإنّ الخطّـة البريطانيّـة على أرض فلسـطين هي الّـتي تـمّ تنفيذهـا، حيـث ثبـت أنّ القـوّة اليهوديّـة لـم تكـن لتسـتقرّ في قوّتهـا لـولا الدّعـم البريطـانيّ والأمريكيّ. ولمـا كان هنـاك دولـة إسرائيـل لـو أنّ (جيـش الإنقـاذ) أو الجّيـوش العربيّـة الّـتي تدخلّـت ولـو بنصف الجدّيّـة في محاربة اليهـود والبريطانيين. كما أنّ الفلسـطينيين -رغـم عـدم امتلاكهـم السّـلاح إلّا مـا نـدر- أظهروا قـوّة وبـلاء وجهـاداً وكفاحاً عظيمـاً كاد أن يحـرّر الأرض لـولا التّدخّـل المـذلّ لجيـش الإنقـاذ الّذي طلـب من الفلسـطينيين المغـادرة لـكي يحـرّر لهـم أرضهم مـن اليهود!!

إنّـني أوجـز هنـا واقـع الجّيـوش العربيّـة والجّبهـات الأخـرى في نهايـة آيار/ ١٩٤٨ أي بعـد الانسـحاب البريطـانيّ من أرض فلسـطين رغم بقاء بعـض الوحدات مـن الجيش...

لقـد حقّقت الجيـوش العربيّة (مجـازاً) وجيش الجّهـاد المقدّس إنجـازات هامّة بعـد هـذا الانسـحاب في ١٩٤٨/٥/١٥، وكان النّصر قريباً.

فلقـد تقـدّم الجّيـش المـصريّ على سـاحل فلسـطين الجنـوبيّ، واحتـلّ عـدة

مستعمرات هامّة، منها: دير سنيد، وأسدود، ونبت اليم، كما حاصرت هذه القوّات عدّة مستعمرات أخرى، وتقدّم الجّيش المصريّ، وكان هدفه مدينة تلّ أبيب!!

تقدّمت قوّة من الجّيش المصريّ المعزّز بمتطوّعين ليبيين وسودانيين ومغاربة حتّى جنوب القدس، وساهمت في حصار القدس مع الجّيش العربيّ الأردنيّ وجيش الجّهاد المقدّس.

أمّا الجّيش العراقيّ فقد قام باسترداد مدينة جنين، والّتي تعدّ أهم مدينة في المثلث الغربيّ. وأظهرت معركة جنين معدن جنود الجّيش العراقيّ وجوهرهم، وكذلك كانت معركة كوكب الهوى الّتي أثبت فيها جنود الجّيش العراقيّ بسالة وفداء واستهانة بالموت، لكنّ هذه الشّجاعة قوبلت بخيانة من القيادة العميلة في بغداد الّتي حالت بينهم وبين الاستمرار في القتال.

أمّا الجّبهة السّوريّة فلقد استطاع الجّيش السّوريّ أن يرابط في مواقع ومساحات كبيرة على الرّغم من الأعداد الكبيرة من الشّهداء في صفوفه، حيث ظلّ اليهود يحسبون له ألف حساب، وخاصّة بعد أنّ رابط في منطقة الأغوار على الحدود الأردنيّة، واحتلّ بمعاونة من الرّجال المجاهدين الفلسطينيين مستعمرة مساره اليهوديّة. أمّا الجّيش اللبنانيّ المحدود العدد والعدّة فقد حافظ على حدوده، واشترك بجهد متواضع في بعض المعارك.

وهنا أحب أن أؤكّد أنّ الشّعب الفلسطينيّ ومناضليه كانوا هم عماد المعركة على جميع الجّبهات. لقد كانوا يتعاونون مع الجنود والقيادة في الجيوش العربيّة الأخرى... فقد كانوا يشاركوهم فيها بنجاح... وكانوا أعوان الجيش

وعدتّـه، فهـم يحمـون خطوطه، وهـم يسـاهمون في تموينـه، ويرحبون ويعـتّزون به، كمـا يشـهد بذلك الجّيش السّـوريّ في مناطـق قتالهم المريـر الرّائع، كما سـجّل قبل ذلـك إعجـاب القائد العـربيّ المجاهد عبـدالله التّل إكبـاره لهم. وهنـا أتوقّف عند شـهادة كلـوب الّذي كان يعلـم أسرار الأمـور عندمـا قال:

«لو سـمح العـرب لقوّاتّهم كلها للعمـل في ١٥/آيـار/١٩٤٨ وزحفوا زحفـاً جدّيّاً لنجحـوا على الأرجح في اجتيـاح الدّولة اليهوديّـة الجديدة».

هـذا هـو كلوب باشـا الّذي سـحب ٨٠٠ جنـديّ أردنيّ يتـدرّب من أمـام اليهود في النّقـب، وأعطـى مجـالاً لليهـود بقوّة لا تزيـد عن ٣٠٠ جنـديّ لفرض الأمـر الواقع على خليـج العقبـة، وبهذه القـوّة احتلّـوا أرض النّقب الّتي كانت تحـت حماية الجيش الأردنيّ، وكذلـك مينـاء أم الرّشراش (إيـلات على الخليج) في ١٠/مـارس- آذار ١٩٤٩.

وتجـدر الإشـارة هنـا إلى أنّ أرض النّقـب كاملة لـم يكن بها جنـديّ يهوديّ أو عائلـة أو فـرد قبـل ذاك التّاريخ الّذي سـلّمت فيـه منطقة النّقب.

تمسّك الفلسطينيين بأرضهم

تـردّدت عـدّة أصـوات متعمـدّة تشـير إلى أنّ الفلسـطينيين قـد تنازلـوا عـن أراضيهـم أو باعوهـا، وكانـت هـذه الدّعايـة تدغـدغ أعـداء الشّـعب العربيّ الفلسـطينيّ مـن العرب واليهـود. لقد كان معروفاً تمسّـك الفلسـطينيين بأرضهم، بـل وكان يُعـدم كلّ مـن يفـرّط بأرضـه والحـوادث كثـيرة. وفي هـذا المجـال يقـول أسـتاذ التّاريـخ الدّوليّ في جامعـة لنـدن أرنولد توينـبي في محـاضرة في جامعة كندا ومناظـرة مـع السّـفير الإسرائيليّ:

«إنّـني لا أزال أقـول بـأنّ إسرائيـل بكاملهـا لا زالـت مـن وجهـة شرعيّـة وملـكاً لعـرب فلسـطين الّذيـن نزحـوا عنها أثنـاء القتـال مـع الدّول العربيّـة، أمّا ممتلـكات اليهـود الّـتي اشـتروها بحـقّ خـلال ثلاثـين عامـاً مـن الانتـداب أو قبل ذلـك، فـهي تشـكّل نسـبة ضئيلـة مـن المسـاحة الّـتي تسـيطر عليهـا إسرائيـل في الوقـت الحـاليّ. أمّا النّسـبة الكبرى مـن الأرض في إسرائيل الحاليّـة والبيوت فيها، والأمـوال المنقولـة الّتي يسـتعملها اليهود، وأشـجار الفاكهة وغيرهـا، فهي لا تزال حقّـاً شرعيّـاً للآجئـين العـرب الّذين يعيشـون على مـدى البصر من تلـك البيوت في ظـروف قيـد الشّـقاء والقنوط».

وبهـذا يظهـر حقيقـة الواقـع لملكيّـة أرض فلسـطين، وأنّ أرض فلسـطين انتزعـت مـن أهلها انـتزاعاً بالقـوّة الاسـتعماريّة البريطانيّة وبالحـركات الصّهيونيّة الاجراميّـة. وهـذا يغلـق أفـواه كلّ من أعجبهـم ترداد أنّ الفلسـطينيين قـد باعوا

أرضهم... وليس ذلك إلّا إساءة متعمدّة للشعب الفلسطينيّ لتبرير خيانتهم وانهزامهم، ومشاركتهم في العدوان على الشّعب الفلسطينيّ.

لقد حصل اليهود على الأراضي تحت طائلة نزع الملكيّة، وقانون تسويّة الأراضي على شكل هبة من دولة الانتداب لمجرد الرّغبة في تمليك اليهود، وأيضاً نتيجة لسياسة إفلاس العرب الّتي سارت عليها بريطانيا.

فقد تملّك اليهود ما مساحته مليونين و١٧٥ ألف دونم من مساحة فلسطين البالغة ٢٧ مليون دونم، وهذه الملكيّة كانت من خلال كلّ وسائل الاحتيال والقوانين البريطانيّة المجحفة، وأيضاً من خلال تجار ومرابين من اصول غير فلسطينية، وتتوزع كالتّالي:

١) ٦٥٠ ألف دونم تملّكه اليهود تملّكاً عادياً خلال فترة طويلة، «الحكم العثمانيّة».

٢) ٣٠٠ ألف دونم منحته بريطانيا للوكالة اليهوديّة مجاناً!!

٣) ٢٠٠ ألف دونم باعته بريطانيا للوكالة اليهوديّة بثمن رمزيّ.

٤) ٧٥ ألف دونم منحته بريطانيا لشركة البوتاس اليهوديّة، مجاناً.

٥) ٦٤ ألف دونم منحته بريطانيا لشركة البوتاس بثمن رمزيّ.

٦) ١٨ ألف دونم منحته بريطانيا لشركة الكهرباء اليهوديّة مجاناً.

٧) ٢٢ ألف دونم باعته بريطانيا لليهود من الأوقاف المسيحيّة.

٨) ١٦٥ ألف دونم باعته أسرة آل سلام لليهود.

٩) ٤٠٠ ألف دونم باعته أسرة آل سرسق لليهود.

١٠) ٣٩ ألف دونم باعته أسرة التيّآن لليهود.

١١) ٧٤ ألـف دونـم باعتـه أسرة التويـني والقبـاني وشـمعة والقوّتـلي والجزائـري وآل يوسـف لليهـود.

لقـد باعـت هذه العائـلات اللبنانيّـة والسّـوريّة أفضـل الأراضي لليهود دون مـراعاة للأخـلاق والانتمـاء، فلقد وجـدت أنّ الأوضاع في فلسـطين لا تسـاعدهم على البقاء.

النّكبة الكارثة والتّطهير العرقيّ المقصود

لقد أشرت سابقاً لمعاني النّكبة متلازمة مع كارثة الشّعب الفلسطينيّ الإنسانيّة، فقد خطّط الصّهاينة بدقّة وبتعاون ومشاركة بريطانيّة إلى إحلال نكبة وسط الشّعب الفلسطينيّ من أجل طرده من أرضه ومن قراه، ومدنه وإحلال اليهود القادمين من شتّى بقاع الأرض الّتي كرهوا واضطهدوا فيها؛ ليحلّوا محل الشّعب الفلسطينيّ في بيوته وقراه ومزارعه وأرضه ومدنه.

ولتحقيق أكبر قدر من الإنجاز مارست الحركة الصّهيونيّة وجنودها أشد أنواع التّطهير العرقيّ عن طريق المجازر والمذابح الّتي سبقت التّهجير المخطّط والمرسوم. وطبقت أشكال عنف عديدة مورست ضد اليهود في أوروبا وغيرها، على الشّعب الفلسطينيّ والّتي كانت تهدف إلى الاستيلاء على أكبر مساحة من الأرض، ومسح أكبر عدد من القرى من الوجود، حيث تمّ إنجاز ذلك من خلال تدمير ٥٣١ قرية فلسطينيّة، واستبعاد الرّجال والأطفال وتشغيلهم في معسكرات العمل، كأحد أبشع أشكال التّطهير العرقيّ، «ضدّ الإنسانيّة»... قد مارست الحركة الصّهيونيّة ذلك أمام العالم كلّه دون رادع أو حتّى عقاب.

المجازر الّتي ارتكبها اليهود

خلال حرب عام ١٩٤٨

شكّلت سياسة اليهود في حرب عام ١٩٤٨ بداية إبادة جماعيّة للشّعب الفلسطينيّ. وارتكب اليهود مجازر جماعيّة تعكس الرّوح الإجراميّة لقيادة اليهود وجنودهم. وبطريقة بشعة قاموا بقتل النّساء والأطفال والشّيوخ من أجل أن يدّب الخوف في نفوس الفلسطينيّين ليغادروا أرضهم، والهرب باتّجاه المجهول.

إنتهج اليهود سياسة المجازر بشكل متواصل في المناطق كافّة، وسنذكر هنا بعضاً من هذه المجازر؛ كي يستعيد كبار السّن تلك الذّاكرة المؤلمة والذّكرى المشؤومة، وليعرف الجيل الجديد أيّ عدّو نواجه ونقاتل... وإلى أين سنصل نحن وإياهم..!!

مجزرة دير ياسين في الذّاكرة... ولن تنسى

لا أعتقد أنّ هناك فلسطينياً لا يعرف ماذا جرى في قرية دير ياسين في ١٩٤٨/٤/١٠، حيث كان هدف المجرمين الإرهابيين من عصابات الأرغون وشتيرن والهاجانا قتل كلّ أهل القرية بأساليب همجيّة لم تشهد البشرية لها مثيلاً حتّى في عهد هتلر.

فلقد قامت العصابات اليهوديّة بتفجير البيوت على رؤوس أصحابها، وكان نداء هذه العصابات بمكبرات الصّوت يدعو السّكان إلى الخروج من بيوتهم والهرب منها أو الموت. صدّق النّاس ذلك، وكانت النّساء تحمل أطفالها، ولم يعد بإمكان الرّجال الدفّاع بعد أن انتهت ذخائرهم. كان كلّ من يخرج طالباً النّجاه من شيوخ ونساء وأطفال يقّع تحت مرمى نيران هذه العصابات، وكانت الأوامر الصّادرة إليهم تدمير كلّ بيت، وقتل كلّ طفل وامرأة ورجل حيّ. استمرّ القتل والتفجير حتّى ساعات الظّهر من يوم ١٠/ نيسان ١٩٤٨، وقد بلغ عدد الضّحايا أكثر من ٣٥٠ شهيداً.

لقد مارس اليهود تقسيم أجساد الأطفال بالسكاكين، وبقر المجرمون بطون النّساء والحوامل وقتلوا أجنتهن، كما قاموا بإطلاق الرّصاص على الرّجال والكبار والشّباب بعد أن تمّ صفهم ووجوههم إلى الحائط... ومزّقت القنابل اليدويّة أجساد الفتيات دون أن يعرفن ما يجري، وبقيت الجثث تحت أنقاض المنازل المتفجّرة أو المفجّرة.

مجزرة طنطورة حيفا

لا تقلّ مجزرة الطنطورة عن مجزرة دير ياسين في العمليّات الّتي مارسها جنود اليهود ضدّ سكانها البالغ عددهم ١٤٩٠ نسمة، فقد قتلوا منهم ٢٣٠ فرداً بنفس الأسلوب الّذي اتّبعوه في مذبحة دير ياسين بتاريخ ١٩٤٨/٥/٢٣.

كانت القنابل تلقى داخل البيوت فيسقط ميتاً من بداخلها وكانوا يجمعون الرّجال، ويطلقون النّيران عليهم... بل إنّ الإجرام بلغ منتهاه عندما فرضوا على الرّجال والشّباب حفر قبر جماعيّ لهم، ودفنوهم فيه.

مجزرة قرية أبو شوشة

تقع قرية أبوشوشة قرب الرّملة، وبلغ عدد سكانها ٩٥٠ شخصاً لغاية عام ١٩٤٨. شارك لواء جفعاني بتاريخ ١٩٤٨/٥/١٤ في هذه المجزرة، حيث قام بقصف القرية من بداية ساعات الفجر حتّى نهاية ساعات النّهار.

ورغم أنّه كان بين القرية «وكيبوتس جيزر» اليهوديّة الّتي أسّست في ١٩٤٥/٣/١٣ شبه هدنة، وكانت تجمع القرية بالكيبوتس علاقات اجتماعيّة واقتصاديّة، إلّا أنّها انهارت في ١٩٤٨/٣/٢١ بعد أن قتل اليهود أحد سكان القرية وأسمه نوح محمّد الحاجّ، فردّ أهله بقتل الحارس من الكيبوتس فيزدنه.

وعلى إثر ذلك قامت القّوات الصّهيونيّة بمجزرة جماعيّة في القرية، راح ضحيتها ستين فلسطينيّا، وتمّ ترحيل بقيّة سكانها من منازلهم الّتي قام الصّهاينة بتدميرها.

مجزرة الدّوايمة

بلـغ عـدد ضحايـا مجـزرة الدوايمـة ٣٣٢ شـهيداً قـضى معظمهـم عندمـا هربـوا إلى المسـجد يـوم الجمعـة ظنّـاً منهـم أن بيـت الله هـو بيـت النجـاة، وأنّ اليهـود لـن يقربـوه. لكـن اليهـود وجـدوا ذلـك فرصـه بتصفية كلّ مـن كان في ا لمسجد .

تقـع الدّوايمـة على بعد ٢٤ كم غرب مدينـة الخليل... وكمـا حصل في القرى والأغـوار والمـدن الأخـرى، فقـد قامـت العصابـات اليهوديّـة الأرغـون وشـتيرن بتدمـير بيـوت القريـة على من فيها، وبلـغ عدد شـهداء الدّوايمة حوالي ١٠٠٠ شـهيد.

مجزرة عيلبون

المجزرة والانطلاقة

لقـد داهمـت القّـوات الصّهيونيّـة في ٢/ تشريـن الثّـاني عام ١٩٤٨ مضـارب عشـيرة المـواسي المجـاورة لقريـة عيلبـون.

فقـد أفاقـوا في ٣٠/ تشريـن الأوّل/ أكتوبـر ١٩٤٨ على دويّ الإنفجـارات في القريـة، ووجـود جنـود «الهاغانـا».

ومـن خـلال مكـبرات الصّـوت دعـت سـكان القريـة إلى التّجمّع في سـاحة البـلدة وهي سـاحة الكنيسـة، واختـار جنـود الهاغانا ١٦ شـاباً، وقامـت بقتلهم أمام سـكان القريـة. تدخّـل البابا نفسـه لإعادة سـكان القرية مـن لبنان بعـد هربهم إلى هنـاك... وهنـا يتذكّر الجميـع عمليّة عيلبـون... عمليّة الانطلاقة ليلـة ١٩٦٥/١٢/٣٠ انطلاقـة «فتـح» المجيدة.

مجزرة عيلوط

تقع قرية عيلوط غرب النّاصرة، وتتوسّط الطّريق الواصل بين قريتي صفّوريه ومعلول قضاء الناصّرة.

سقطت القرية بيد القّوات الصّهيونيّة بتاريخ ١٩٤٨/٧/١٦، حيث جمعت قواتهم ١٣ شاباً، وقتلتهم بدم بارد، وهجّرت سكان القرية. وأثناء تجميعهم للطّرد قتلت القوّات ثلاثة شباب آخرين.

مجازر أخرى جرت خلال سنوات ١٩٤٨-١٩٥٦

- مجزرة دير أيوب.
- مجزرة شرفات.
- مجزرة بيت لحم.
- مجزرة بيت جالا.
- مجزرة قفين.
- مجزرة رنتيس وفلامه.
- مجزرة قبية.
- مجزرة نحالين.
- مجزرة غزة.
- مجزرة قلقيلية.
- مجزرة كفر قاسم.
- مجزرة خان يونس.
- مجزرة الشّيخ عمري.

لقد سبق هذه المجازر الّتي كان لها دور في تهجير الفلسطينيّين بالقوّة هجوم قوّات الهاغانا بتاريخ ١٩٤٨/٤/١٠ على قرية قالونيا الّتي تقع بين القسطل والقدس وأحرقتها.

في ١٩٤٨/٤/١٣ هاجمت الهاغانا قرية اللجون قضاء جنين، وقتلت ١٣ فلسطينيّا.

في ١٩٤٨/٤/١٦ هاجمت الهاغانا قرية ساريس الواقعة على طريق القدس، وهدمت معظم بيوتها، وطردت سكانها.

في ١٩٤٨/٧/١١... وبعد مواجهات شديدة بين الفلسطينيّين وقوّات اليهود تغلّبت القوّة اليهوديّة، فقتلت ١٧٦ فلسطينيّاً كانوا موجودين في المسجد، وبلغ مجموع الشّهداء الفلسطينيّين في منطقة الرّملة ٤٢٦ شهيداً.

كانت تلك مختارات من المذابح التي تم توثيقها حتى ذلك التاريخ، وانني على يقين بأن هناك مذابح تمت تحت جنح الظلام، لم يأتِ أحد على ذكرها. كما أن جرائم الصهاينة لم تتوقف حتّى اليوم، ولم تجد إسرائيل قّوة تردعها، وكأنّ العالم أصبح أعمى لا يرى، ولم يتبق إلّا أولئك الرّجال الّذين سقطوا دفاعاً عن فلسطين بهدف تحريرها، وأولئك الأطفال الّذين نراهم اليوم، والّذين لم ينسوا أرضهم ووطنهم ودماء أجدادهم على امتداد كلّ قرى فلسطين من الشمال إلى الجنوب... وكما كان سابقاً فإنّ هؤلاء الأطفال لا يجدون سلاحاً بأيديهم إلّا سكاكين مطابخهم الّتي يواجهون بها أعتى قوّة في الشّرق الأوسط وما بعده.

عنوان جديد

تـردّدت كثـيراً عندمـا قـرّرت الكتابـة عـن جـذور القضيـة الفلسـطينيّة واحتـدام الـصّراع عليهـا وحولهـا، وأردت العنايـة بالجانـب السّـهل مـن الموضوع، واختصـاره عن النّكبة ومعايشـتي لها، وجذوة الشّـباب المطالبة بالانتماء والمشـاركة في قهـر النّكبـة وإزاحتها مـن حياتنا وعقولنا، والبحـث عن كلّ الوسـائل الّتي تحدد لنـا الأهـداف والأدوات والأسـاليب والطّـرق الّتي تـؤدّي لإزالة هـذه النّكبة (كما هي إزالـة أثار العـدوان!!).

وزادت رغبـتي في الكتابـة عـن فتح ورجالاتهـا وروّادها ومؤسّسـيها وفِكرِها وسياسـاتها ومراحـل تطـور حضورهـا، خاصّـة الفـترة الزّمنيـة مـا بـين نكبة عام ١٩٤٨ وبدايـة التّفكـير في التغيـير؛ أي منـذ تأسـيس رابطـة الطّلبة الفلسـطينيّين في القاهـرة عام ١٩٥١... كمـا أن العلاقـة الحميميّـة الّـتي ربطتـني بالصّديـق القائـد المتميـز عبدالفتّـاح الحمـود وكمـال عـدوان وماجد أبـو شرار أغرتـني بالتّركيز على تلـك المرحلة.

لكـن عندمـا اسـتعدت مـا تراكـم في الذّاكـرة وألمهـا مـن جهـاد وعطـاء وجراحـات امتـدت عبر أكثر من مئة عام، عانى فيها الشّـعب الفلسـطينيّ في سـبيل الاسـتقلالية وحريتـه وحماية أرضه ومقدسـاته ما لم يعانيه شـعب على هذه الأرض. ومـن عظمـة هذا الشّـعب أنّه مـازال قـادراً على العطـاء. ويحضرني في هـذه اللحظة قـول القائـد الكبـير يـاسر عرفـات: «كان الشّـعب الفلسـطينيّ، ولازال، وسـيبقى أعظـم مـن قادته».

ولهذا عدت إلى الجذور وإلى التاريخ لأدوّن بعض الحقائق والأحداث والمعارك الّتي خاضها الشّعب الفلسطينيّ ضدّ الانتداب البريطانيّ واحتلاله، وضد الحركة الصهيونيّة منذ نشأتها، ولكن وباختصار شديد، رغم هذا الكمّ من الألم الّذي عشته أثناء مراجعتي لتلك الفترات. فمنذ عام ١٨٩٦ وظهور فكرة خلق دولة يهوديّة الّتي نادى بها اليهوديّ الصهيونيّ «ثيودور هيرتزل» وتبناها المؤتمر الصهيونيّ الأوّل الّذي عقد في مدينة بازل في سويسرا عام ١٨٩٧، وحتّى اليوم لم يتوقف هذا الصّراع مع الحركة الصهيونيّة.

رغم دعم كلّ العالم، الّذي يريد أن يتخلّص من اليهود تحت أيّ عنوان، إلّا أن الشّعب الفلسطينيّ -ولوحده- ويقاوم بدون إستكانه أو تراجع أو خوف من أجل حقوقه وحريته. ولهذا أختصر في توثيقي إلى بعض العناوين الّتي استقيتها من العديد من المراجع، ليكون سهلاً على الباحثين الوصول إليها والتّوسّع فيها.

ونظراً لاستمرار النضال وتواصل ثورات الشّعب الفلسطينيّ فقد حاولت دولة الانتداب تقديم بعض مشاريع الحلول الهادفة إلى تخدير وتهدئة الفلسطينيّين... ومن هذه المشاريع الّتي يجب البحث فيها، والتّوسّع في مراجعيها خلال الفترة الممتدّة من ثورة عام ١٩١٩ وحتّى عام ١٩٤٧:

• مشروع الكهوب، ولجنة اللورد بيل، ولجنة وودهين، واللجنة الانجلوأميركية، ومشروع ينوكومب، ومشروع الكتاب الأبيض، ومشروع موريسون.

ويضاف إليها مشروعا الملك عبدالله والملك عبدالعزيز، ومشروع نوري السّعيد، وهذه المشاريع كانت خلال فترة الانتداب البريطاني.

أما المشاريع الّتي بدأت بعد العام ١٩٤٧ فهي:

- قـرار الأمـم المتحدة بتقسـيم فلسـطين، ومشروع الوسـيط الدّولي الكونـت برنادوت، ومشـاريع اللجنـة الّتي سـميت لجنة التّوفيـق الدّوليّة.

أمّا المشاريع الفلسطينيّة، أو المتلازمة معها، فهي:

- مـشروع حكومـة عمـوم فلسـطين، ومـشروع الوحـدة الأردنيّة-الفلسـطينيّة، ومؤتمر عمّـان، ومؤتمر أريحا، ومؤتمـر رام الله، ومؤتمر نابلس، والخطوات الدّسـتوريّة القائمة على الوحـدة، ومـشروع المصالحة.

- كمـا رافـق هذه المشـاريع مـشروع جاما، ومـشروع والس، ومشروع ايـدن، ومشروع بيرسـون ومنزيس، ومشروع همرشـولد.

لقـد جـاءت هـذه المشـاريع مترافقة مـع النّكبة وحـتّى العـدوان الثّلاثيّ على مـصر، ولـم تقدم هذه المشـاريع شـيئاً للفلسـطينيين بشـكل عام واللاجئين بشـكل خـاص، بـل كانت شـكلاً من أشـكال الهـروب مـن المسـؤوليّة، والعجز أمـام الحالة اليهوديّـة الإسرائيليـة فيما بعد.

كانـت النّكبة الّـتي رافقها وأكمل مهمتها اتّفاقيّات الهدنـة العربية- الإسرائيلية الّـتي كانـت وكأنّهـا معـدّة سـلفاً للانتهـاء مـن القضيّـة الفلسـطينيّة، بـل إن هـذه الاتّفاقيـات فتحـت شـهية العدّو فأخـذ أرض النقـب، وأخـذ أرض ام الـرشراش على البحـر الأحمـر (ايـلات) بـدون مقاومة، بـل بتعليمات بالتسـليم!!

وأتـت النّكبـة الثانيـة عام ١٩٦٧ ومـا سـموها النّكسـة أو هزيمـة الأمـة وجيوشـها وقادتهـا شرّ هزيمـة، أو ما سـمي حـرب الأيام السّـتّة للتدليـل على مهانة العـرب وضعفهـم، فـكل الجيـوش وقياداتهـا وتبجحهـم لـم يصمـدوا أمـام الجيش الإسرائيـلي سـتّة أيام.

ولا أدري الآن وأنـا أسـتعيد تلك الأيـام وأقول: لو رجم جنـود العرب الجيش الإسرائيّـلي بالحجـارة كمـا يفعـل أطفال فلسـطين لما اسـتطاع الجيـش الإسرائيلي الاسـتيلاء على كلّ هذه الأرض!!

لقـد تعوّدنـا أن نفتـش عـن الكلمـات والمعـاني وأبعادها ودراسـة المسـتمعين إليهـا حـتّى نختـار أنسـبها، وأبعدها عـن الخطر.

لكـنّ عواصـف التّأثـير على هذا الشّـعب المنكـوب مـن الدّول العظمى حتّى الصّغـرى وفي المراحـل كافة، وبدون توقّـف، لا تدع لي مجالاً للبحـث عن الكلمات، أو إخفـاء الحقائـق فأقدمها كمـا هي، لعلّه يأتي زمـن ورجال وحتّى أطفـال يتمردّون على قسـوة الواقـع ونفـاق الكلمـات حتّى لا تسـتمر النّكبـة، ولا يسـتمر اللجوء، ولا يبـقى مـن الألم النّاجم عـن كلّ ذلك إلّا ذكـرى التّحـرّر والحرّيّة، وتلـك العذابات.

النّكبة

اليـوم (٢٠١٨م)... وبعـد سـبعون عاماً نرى هـذا الصّلف الإسرائيـليّ يفرض نفسـه على العالـم ومن يخالفه يصبـح لا سـاميّاً، أو إرهابيّاً.

لقـدّ أخضـع هـذا الصّلـف الإسرائيـليّ الدّول العربيّـة واحـدة تلـو الأخرى فارضـاً مكانتـه بالقـوّة المدعومـة بـلا حـدود مـن الولايـات المتّحـدة الأمريكيّـة والدّول الغربيّـة، ومدعومة بالمال والسّـلاح والاقتصاد، فلا يجـرؤ عربيّ أن يتحدّث عـن القـوّة النّوويّـة أو التّفكير بامتلاكهـا أو اسـتعمالها... وهـا هي إسرائيل تفرض على العالـم كلّـه حقيقـة أنّـه يجـب أن تبـقى القـوّة الأولى في منطقة الشّرق الأوسـط بـلا منازع؛ عسـكريّاً واقتصاديّاً وسياسـيّاً. فالغرور وغريزة حبّ السّـيطرة المتجذّر في الفكـر الصّهيـونيّ يتطلّـب أن يتحـوّل الفلسـطينيون والعـرب إلى مسـتخدَمين منهوبـة حقّوقهـم في أرضهـم، وفي حقّهـم في تقرير مصيرهم بأنفسـهم... ومن يرفض ذلـك يقتل أو يطـرد أو يهجّر أو يسـجن.

إنّـني مـا كنـت لأطرق هـذا الموضوع لـولا هذا الكـمّ من الألـم الّذي يغرق روحي في ذكريـات النّكبـة، رغـم أنّ عقلي التّبريـريّ يدغدغني، ويقـول: إنّني قمت بمـا عليّ القيـام بـه، فلقـد حملـت ورفـاقي في عام النّكبـة -ونحـن حفـاة الأقـدام لا نمتلـك إلّا سـكيناً، أو بقايـاه، ذاهبين إلى القـدس وحارة اليهود- عـبء الدّفاع عن القـدس بأيّـة وسـيلة... ولكـنّ اليـوم هل خمـدت هـذه الـرّوح..؟ إنّني أقسـم أنّها بعـد هذه الأعـوام الطّويلـة والبعيدة والممتـدّة في أعمـاق قلوبنا وأرواحنـا... أنّها لم تخمد، ولـن تخمد جـذوة الكفـاح أبداً.

لقدّ سمعت وقرأت أوصافاً عدّة للنّكبة، ومنها «الهزّة العنيفة»، و«الخطر الأعظم»، و«الأزمة الخانقة»، و«الفاجعة الفلسطينيّة»، أو «فاجعة العرب في فلسطين»، أو«الكارثة القوميّة الشّديدة»، أو«الكارثة الّتي حلّت بالأمّة العربيّة في فلسطين».

وأنا اليوم أقول شيئاً جديداً: إنّ كلّ تلك المسميات كانت صحيحة إلّا أنّ هناك الكثير من الجديد، وهذا الجديد يكمن في العقيدة الفلسطينيّة. فرغم كلّ تلك الأعوام الّتي مرّت على النّكبة، فما زالت فلسطين في مكانها ومكانتها في قلب الفلسطينيين وعقيدتهم، وكذلك في ضمير كلّ عربيّ ومسلم على وجه الأرض... ففي كلّ يوم يدخل الفلسطينيون في تجربة نضاليّة وإبداع قتاليّ جديد بأشكال مختلفة.

لقدّ عرّت نكبة فلسطين الأنظمة العربيّة، وكشفت للإنسان العربيّ هذا الضّعف اللامتناهي... وظهر أنّ الحركة الصّهيونيّة ليست حركة استعماريّة عابرة بل هي مشروع استعماري استيطاني، وهي توجّه وتخطيط وإدارة وتحكّم في مؤسّسات ماليّة واقتصاديّة وإعلاميّة وسياسيّة على امتداد العالم. وهي لا تبغي البقاء في فلسطين وحدها بل تريد السّيطرة على العالم العربيّ. ورغم أنّنا نتصوّر وجودنا أنّنا أصحاب تاريخ واحد ولغة واحدة ومستقبل واحد، إلّا أنّ الحركة الصّهيونيّة هي الّتي أفسدت هذه العلاقة، وزيّفت التّاريخ وقلبت الحقّائق، وتحالفت في المنطقة مع أعداء المنطقة والطّامعين فيها من كلّ بقاع الأرض؛ ليتجمعوا في فلسطين، ويستهدفوا أرضها وقيمها وتاريخها وحضارتها... فأصبحوا أكثر قوّة وتمسّكاً بالأرض الّتي أطلقوا عليها أرض الميعاد، مدعومين بلا حدود من القوّة الأمريكيّة والاستعمار كقاعدة عسكريّة متقدّمة لهم.

تتوقّف الذّاكرة عند أبواب النّكبة، فلا نجد نافذة أو باباً يمكن أن تصل منه إلى الحقّيقة الّتي حملت لوناً أسود في هذا التّاريخ العربيّ، فلا يمكن أن تجد تفسيراً لهزيمة سبع دول عربيّة اشتركت في حربها ضدّ مجموعة من العصابات انتزعت الأرض الفلسطينيّة من أصحابها، وهزمت جيوش سبع دول كان قادتها يتقنون فنّ الصّراخ و الخطّابة.

كانت جيوشهم تتقهقر أمام هذه العصابات الإرهابيّة الّتي ولدت بحماية إنجليزيّة، فكيف يمكن أن تُهْزم هذه العصابات وقائد الجيوش العربيّة جنرال إنجليزيّ يخطط وينفذ الهجوم والانسحاب، أمّا الآخر فكان يرسل سلاحاً فاسداً يقتل صاحبه، وجيوش أخرى كانت تحاول أن تتعلّم الاستعراض وليس القتال.

ولهذا رافق النّكبة نكبة أخرى هي اتّفاقات الهدنة مع العدوّ... وكانت النّتيجة تشريد نحو مليون فلسطينيّ إلى أرض الشّتات... هجّروا من بيوتهم، وانتزعت منهم أموالهم وأملاكهم... هائمين في أرض العرب... واقفين في همّ الإذلال النّاجم عن اللجوء وعن الفقر الّذي حولّهم إلى طالبيّ ما تجود به عليهم الأمم المتّحدة من أجل البقاء أحياء على أمل العودة، والّتي يمكن أن تؤدّي بهم أيضاً إلى الإذابة والذّل والقتل والإلغاء.

لقدّ أعلنت بريطانيا عن انتهاء انتدابها على فلسطين بعد أن قدّمت كلّ ما يمكن للعصابات اليهوديّة الصّهيونيّة من السّيطرة، حيث قدّمت معسكراتها ودباباتها وأسلحة المدفعيّة والرّشاشات وعزّزت مصنع الأسلحة، وسلّمت كلّ مواقعها الإداريّة والسّياسيّة والعسكريّة وغيرها لهم. وفي ١٥/ أيار/ مايو/١٩٤٨ أعلن اليهود عن قيام دولة إسرائيل، وهو اليوم الّذي بدأ فيه القتال بين جيوش مصر وسوريا وشرق الأردنّ والعراق ولبنان وبين القوّات الصّهيونيّة.

كان الصّهاينة كلما شعروا بالضّغط والضّعف يطلبون هدنة، وتلبى لهم الهدنة! وهكذا أصدر مجلس الأمن الدّوليّ قراراً بإعلان الهدنة الأولى في ١١/ حزيران/١٩٤٨ الّتي دامت لغاية ٨ تموز/ يوليو/١٩٤٨.

استؤنف القتال مجدّداً على كلّ الجّبهات، واستمرّ حتّى ١٨/ تموز /يوليو/١٩٤٨ عندما أعلن عن الهدنة الثّانية، لكنّ «إسرائيل» لم تتقيّد بالهدنة الثّانية هذه عندما شعرت أنّ بإمكانها التّمدّد على كلّ الجّبهات بدعم كامل من بريطانيا والولايات المتّحدة الّتي حلّت في موقع الاهتمام مكان بريطانيا.

وعندها... فرضت القوّات الإسرائيليّة حضورها على جميع الجّبهات، وهنا فرضت إسرائيل هدنة دائمة مع مصر في ٢٤/ شباط/ فبراير/١٩٤٩، وعلى لبنان في ٢٣/ آذار/ مارس/١٩٤٩، وعلى شرق الأردنّ في ٣/ نيسان/ إبريل/١٩٤٩، وعلى سوريا في ٢٠/ تموز/ يوليو/١٩٤٩، وأنسحب العراق من الأرض الفلسطينيّة، لكنّ الجّيش العراقيّ كلّف الأردنّ في ذلك ولبحث المواقع الّتي تمركز فيها الجّيش.

هدأت حناجر المذيعين في تلك الدّول، وعاد جنودهم يجرّون ذيل الهزيمة، وبحث الفلسطينيون في أطراف خيامهم عمّا يمكن لبسه أو أكله، ونقّبوا في تراب المخيّمات عن باقي الأمل والحلم أن يعودوا إلى وطنهم وبيوتهم ومزارعهم... لكنّ النّكبة حلّت، واستمرّت وقصمت ظهر بعير الأحلام، وحوّلتها إلى أوهام... لكنّ الفلسطينيّ كان دائماً كطائر الفينيق الّذي ينهض من الرّماد بعد احتراقه، وكانت دموعه تدخل إلى عقول وقلوب الشّباب الفلسطينيّ الّذي قرّر أن يعتمد على نفسه، وينتصر لذاته التي سحقها الاستعمار، ويستعيد من تحت الأطلال جذوة الأمل لإنتزاع حقه في الحياة.

النّكبة في عيون اللآجئين

شكّلت النّكبة في عيون اللاجئين الفلسطينيّين الّذين أرغموا على اللجوء والهجرة فراراً محاطين بعشرات المجازر الهادفة إلى قتلهم وإذلالهم وتهجيرهم... لوحة سوداء قاتمة لحياتهم في مخيّمات اللجوء، وممّا أصابهم من المحتلّ ببيوتهم ومزارعهم ومعاملهم ومتاجرهم وكلّ مقدساتهم... ذاك القادم من كلّ أشتات الأرض، ناقلا أساليب الذّلّ الّتي مورست عليه في تلك الأراضي ليطبقها على الفلسطينيّين، وفي نفس الوقت تلك الممارسات العدوانيّة الّتي كانت موجّهة من الأنظمة العربيّة وأجهزتها ضدّ اللآجئين رغم أنّ الفلسطينيّين، وحيثما حلّو، كانوا روّاداً في مجالات الحياة كافّة: **الاقتصادية والفكريّة والفنّيّة** وغيرها.

كانت دروب الحياة تبدأ حيثما حلّ الفلسطينيون، ولا أريد أن أعدّد وأحسب وأكشف كلّ ما سبق.

كانت تبنى خيمة اللاجئ الفلسطينيّ وترى في اليوم التّالي حوض نعنع أو شجرة تين ودالية تسرع في جهودها، ويتحوّل مكان الخيمة والغرفة إلى حديقة حتّى ولو كانت الأرض المقام عليها صحراء.

الفلسطينيّون شعب حيّ وحرّ ومجاهد لم يتوقّف نضاله حتّى قبل مئة عام، وسيبقى ولو لبعد مئة عام.

من خلال هذا الحضور القوي في المخيّمات الّتي وجدوا فيها كانت تظهر في الأفق تلك الأضواء المخترقة اللوحة السّوداء تشير أنّ أمر العودة إلى بيوتهم

ومزارعهم أمر حتميّ، حيث لاحظناه في الدّين، وفي قافلة الشّهداء الحاملين للحجر والسّكين والبندقيّة، بل والمطلقين للأشعار... وسيبقى كلّ ذلك خالداً حيّاً مستمرّاً حتّى يعود اللاّجئون الّذين هم الآن قلب عنوان الوجود الفلسطينيّ الّذي لا ينتهي إلّا بنهاية مأساتها... ومهما طال الزّمان، وكثرت المستوطنات، وزاد عدد القادمين إلى أرض فلسطين فلن تكون فلسطين، أرض ميعاد بل ستكون أرض العودة. وخير دليل هذه الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل لا ترفع الحناجر في أصواتها إلّا لفلسطين كلّ فلسطين... وربما يتوقّف النبض أمام المواقف السّياسيّة هنا وهناك، ولكنّ الحقّ الفلسطينيّ فوق كلّ اعتبار، وفوق كلّ قوّة مهما كانت جبّارة.

إنّ قضيّة اللاّجئين الفلسطينيّين هي قضية وطن شُرّد شعبه وقتل، وارتكب بحقه أبشع أشكال المجازر من قِبل العدوّ ولا يمكن أن يتخطى أي انسان هذا الألم الممتد الناتج والمرافق لكل لاّجئ فلسطيني.

إنّ جوهرة القضية الفلسطينيّة اليوم هي قضية اللاجئين الّذين لا يحقّ لأحد أن يتنازل عن حقوقهم في يافا وحيفا وصفد وطبريا والدّوايمة والطّيرة وديرياسين، ولا يحقّ لأحد أن يبرّر للعدوّ مسلكه في قضيتهم؛ وليس حلماً أو خيالاً أو لا واقعيّة عودتهم؛ فهم أصحاب الأرض وأصحاب الحقّ في محاربة كلّ الظّلم الّذي لحق بهم... وأؤكد أنّه ليس هناك أيّة اتّفاقيّات وضعت أو ستوضع ستلغي حقّ اللاجئين في العودة إلى بيوتهم وأراضيهم مهما طال الزمن.

إنّ حقّ اللاجئين هو باستعادة كلّ حقوقهم بما في ذلك حقّ العودة وحقّ استعادة الممتلكات، وحقّ التّعويض عن الخسائر الماديّة والمعنويّة... وهذا الحقّ مدّون ومثبّت منذ قرار الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة رقم (١٩٤ لسنة ١٩٤٨) والّذي تّم التّأكيد عليه حتّى الآن أكثر من ١١٠ مرة.

أصبح واضحاً للعدوّ قبل الصّديق أنّه لا يوجد تسوية أو حلّ عادل وشامل إذا لم يطبّق حقّ اللاجئين الفلسطينيّين في العودة إلى بيوتهم الّتي أخرجوا منها.

ولا أريد أن أدخل في تفاصيل مفاهيم وقوانين دوليّة تشير إلى التّرحيل القسريّ للجماعات والأفراد، أو حرمان أيّ شخص من العودة إلى وطنه.

لقد قامت المنظّمات الصّهيونيّة الإرهابيّة بطرد الفلسطينيّين وتشتيتهم، واستولت على أراضيهم وبيوتهم وممتلكاتهم، واستعملت كلّ الأساليب الوحشيّة لتحقيق ذلك من خلال:

ممارسة المجازر والذّبح المنظم والمروّع، والّذي كان عنواناً لكل المذابح، فهذا ما أظهرته وثائق الهاجاناه لاحقاً وخاصة الخطة (دالت) الّتي وضعها بن غوريون.

إطلاق يد اليهود في السّلب والنّهب، الّتي لم تشهد أيّ بلاد في المنطقة لها مثيلاً، فقد كشف اليهود عن وجههم الحقيقيّ، فتسابق رجالهم ونساؤهم في نهب كلّ شيء أمامهم، فقد فككوا أبواب البيوت الفلسطينيّة وشبابيكها، ونهبوا أثاثهم وكتبهم حتّى أنّ بعضهم خلعوا أبواب بيوت الفلسطينيين وحملوها معهم.

نقل اليهود عداءهم لكلّ ما هو عربيّ، فمارسوا أسلوب هدم البيوت العربيّة، وقطع أشجار المزارع وحرقها... حتّى الطّرق الممتدّة بين القرى ومداخلها قاموا بتدميرها.

لقد هدم قطعان المنظّمات الصّهيونيّة ٦٢,٦٪ من مجموع القرى والمدن الفلسطينيّة، والّتي بلغ عددها ٤٦٨ قرية ومدينة، وشكّل ذلك قاعدة أساسيّة لتشريد الفلسطينيّين من وطنهم، وسياسة اعتمدت عليها الحركة الصّهيونيّة

لتثبيت الدّولة الإسرائيليّة... وهنا برزت مشكلة اللاجئين الّذين توزّعت مخيّماتهم على النّحو الآتي:

١. الضّفّة الغربيّة وقطاع غزّة الّتي احتوت على ٢٨ مخيماً للاجئين الفلسطينيّين، ويسكنها ٣٥٠,٠٠٠ لاجئ.

٢. مخيّمات الأردنّ: وهي(١٠) مخيّمات يسكنها ٢١٠,٠٠٠ لاجئ.

٣. مخيّمات سوريا: وهي (١٠) مخيّمات يسكنها ٧٥,٠٠٠ لاجئ.

٤. مخيّمات لبنان: وهي (١٣) مخيّما يسكنها نحو ١٧٤,٠٠٠ لاجئ. حسب احصائيات وكالة الغوث.

لقد تمّ تقدير عدد اللآجئين الفلسطينيّين مابين عامي ١٩٤٨ - ١٩٤٩ إلى نحو ٧٨٠ ألف لاجئ، وحسب تقديرات أخرى فقد بلغ عدد اللآجئين المسجّلين في وكالة الغوث والفلسطينيّين الّذين لم يسجلوا ولم يسكنوا المخيّمات حوالي ١,٤٣٤,٠٠٠ والّذين يشكّلون العنوان الأساسيّ للنّكبة المستمرّة في الحضور والوجدان وألم الذّلّ والشتات بعيداً عن وطنهم.

المخيّمات الفلسطينيّة في كلّ المناطق

- **مخيّمات لبنان:**

عين الحلوة، ونهر البارد، والرّشيدية، والبرج الشّماليّ، والبداوي، وبرج البراجنة، وشتيلا، والبصّ، وبعلبك (ويفل)، والميّة ميّة، وضبية، ومار الياس.

- **مخيّمات سوريا:**

النّيرب، وخان الشّيح، ومخيّم حمص، وست زينب، وجرمانة، وسبينه، وخان دنون، ومخيّم حماه، ودرعا، ومخيّم الطّوارئ في درعا، واليرموك.

- **مخيّمات الأردنّ:**

الوحدات، ومباركا، وإربد، والحصن، والزّرقاء، وسوف، وجرش، والطّالبيّة، والحسين، وأخيراً البقعة وشنلر.

- **مخيّمات الضّفّة الغربيّة:**

بلاطة، وطولكرم، وجنين، وعسكر، والدّهيشة، وشعفاط، والجلزون، والعروب، وقلنديا، والأمعريّ، ونور شمس، والفارعة، ودير عمّار، وعين السّلطان، وعايدة، وعين جبريل، والفوّار.

- **مخيّمات قطاع غزّة:**

جباليا، ورفح، والشّاطئ، وخان يونس، والنّصيرات، والبريج، والمغازي، ودير البلح.

قرارات الأمم المتّحدة الخاصّة باللاجئين الفلسطينيّين

يأتي القرار ١٩٤ الصّادر في ١٩٤٩/١٢/١١ أوّل القرارات، وهو صادر عن الجمعية العامّة للأمم المتحدة... ويمكن العودة للنّصوص الخاصّة بهذه القرارات.

صدر عن مجلس الأمن ثلاثة قرارات، وهي: قرار رقم (١٩٣) الّذي صدر في الثّامن عشر من أيار ١٩٥٠، والقرار (٢٣٧) الّذي صدر في الرّابع عشر من حزيران ١٩٦٧، والقرار رقم (٤٤٦) الّذي صدر في الثّامن والعشرين من آذار ١٩٧٩. وكالعادة ضربت إسرائيل بعرض الحائط كلّ هذه القرارات باستهانة واضحة للأمم المتّحدة.

الأحزاب والقوى السّياسيّة في فلسطين حتّى العام ١٩٤٨

كان في فلسطين الكثير من الحركات والمؤسّسات والجّمعيات والأحزاب الّتي تنتمي لأقصى اليسار وأقصى اليمين، ومنها:

- **الحزب الشّيوعيّ الفلسطينيّ.**
- **حزب الإخوان المسلمين.**
- **حزب التّحرير الإسلاميّ.**
- **حزب البعث العربيّ الإشتراكيّ.**
- **القوميون العرب.**

كان من أهمّ المؤسّسات الّتي كانت على السّاحة الفلسطينيّة (الهيئة العربيّة العليا)، والّتي تشكّلت بقرار من جامعة الدّول العربيّة على أسلوب وطريقة وهدف كان أكثر بساطة من أسلوب تأسيس منظّمة التّحرير الفلسطينيّة، وأصبحت لاحقاً الهيئة العربيّة ممثّلة لفلسطين، وكان لها وظائف ثلاث هي:

- **الدّعاية.**
- **المقاطعة.**
- **مساعدة وتنشيط عرب فلسطين.**

تتألف الهيئة العربيّة العليا من مجموعتين، وهما:

- **اللجنة العربيّة العليا: يرأسها جمال الحسينيّ، ويقودها الحزب العربيّ الفلسطينيّ.**

- **الجّبهة العربيّة الّتي تكونت في ١٩٤٦/٦/٢ من ممثّلين عن أحزاب الاستقلال، والدّفاع الوطنيّ، والكتلة الوطنيّة، والإصلاح، ومؤتمر الشّباب، وعصبة التّحرّر الوطنيّ.**

كانت الهيئة العربيّة العليا من أنشط المؤسّسات الفلسطينيّة، ففي بداياتها قامت بإجراء اتّصالات مع العالمين الغربيّ والإسلاميّ للتّعريف بالقضيّة الفلسطينيّة، وتشكّلت لها لجان في كلّ من القاهرة والقدس متخصّصة في الدّعاية، والمقاطعة، والحفاظ على الأراضي، وتنظيم الشّباب. وأسّست الهيئة، وكان لها حضور في لندن، وكراتشي في الباكستان، والأمم المتّحدّة.

لا شكّ في أنّ الهيئة العربيّة العليا شكّلت الكيانيّة الأولى للشّعب الفلسطينيّ من خلال تهيئة الشّعب الفلسطينيّ لقتال الصّهاينة، وإيجاد نظام سياسيّ من خلال تشكيل إدارة قوميّة عامّة لفلسطين، كما شكّلت الهيئة جيش الجهاد المقدّس بقيادة عبد القادر الحسينيّ الّذي رفض التّقسيم عام ١٩٤٧، وقاد المعركة ضد الصهاينة المهاجرين، وكان بذلك الممثّل العسكريّ المعروف لدى الفلسطينيين في تلك الحقبة.

لم يكن هناك رغبة لدخول الجيوش العربيّة إلى فلسطين، بل كان التّفكير في بقاء الجّيوش العربيّة على الحدود مع فلسطين؛ لإرهاب العصابات

الصّهيونيّة والضّغط على بريطانيا. في نفس الوقت اقترح الحاجّ أمين الحسينيّ على مجلس الجامعة العربيّة المنعقد في لبنان بتاريخ ١٩٤٧/١٠/٧ -أيّ قبل قرار التّقسيم- بمشروع حكومة عربيّة فلسطينيّة، لكنّ مشروعه رفض خاصّة من العراق والأردنّ.

لكنّ هذا الرّفض قوبل بتكرار الهيئة لاقتراحها في أوائل شباط ١٩٤٨، واقترحت قيام نظام مؤقّت في فلسطين حمل اسم «الإدارة الفلسطينيّة العامّة» بصفتها المتحدّث باسم الشّعب الفلسطينيّ؛ ليعلن استقلال فلسطين كدولة ديمقراطيّة بمجرد انتهاء الانتداب في ١٩٤٨ على أن تُدعى البلاد لإنتخاب جمعيّة تأسيسية لوضع دستور الدّولة وتحديد نوع الحكم... لكنّ جامعة الدّول العربيّة لم توافق على المشروع، ثمّ جدّدت الهيئة مطالبها في نيسان ١٩٤٨، ورفضته الجامعة مرّة أخرى.

النّكبة المتجدّدة بالأيدي العربيّة

لـم يكتـف النّظـام العـربيّ المسـتعبد لبريطانيـا وفرنسـا أيـام الحـرب عام ١٩٤٨ بسـحب سـلاح الفلسـطينيّين، وعـدم السّـماح لهـم في كثير مـن المناطق من ممارسـة حقّهـم في الدّفـاع عـن أراضيهـم، بـل سـاهموا كذلـك في تسـليم الأراضي الفلسـطينيّة إلى اليهود بالتّنسـيق مـع البريطانيين. ويظهر ذلـك واضحاً في مذكرات اللـواء عبـدالله التّـلّ القائـد الأردني في القـدس، وذلـك عندما تحدّث عـن الجبهة الأردنيّـة ومشـاركة الجيـش الأردنيّ والّذي كان يقـوده كلوب باشـا ومعـه العشرات مـن الضّبّـاط البريطانيـين، وعندمـا تحـدّث كذلك عـن الجبهـة المصريّـة الّتي كان يحكمهـا الملك فـاروق التّابع، والمحكوم من السّـفارة البريطانيّـة في مصر، وصاحب صفقات السّـلاح الفاسـد المعروف، و جيـش الإنقاذ الّذي كان مأمـوراً من الجامعة العربيّـة الّـتي أسّسـتها بريطانيـا، والّتي لـم تقدّم حـتّى يومنا هذا أيّ شيء للشّـعب الفلسـطينيّ وللقضيّة الفلسـطينيّة.

هـذه هي الجبهـات العربيّـة الّتي كانت تهـدف، أوّلاً وقبـل كلّ شيء، إلى عزل الفلسـطينيّين عـن قضيتهم، وبالتّـالي مصادرة قرارهم السـيّاسيّ وسـحبه وتدميره. فبالإضافـة إلى تجريـد الفلسـطينيّين مـن سـلاحهم ثم تجريدهـم من إمكانيّـة اتّخاذ أيّ قـرار تنظيـميّ أو سـياسيّ. إنّ القضيّـة الفلسـطينيّة الّتي كانـت، ولا زالت، عبئاً على الأنظمـة العربيّـة وجـدت مكانهـا في قلوب الملايين مـن الشّـعوب العربيّة. وقد سـبق وأشرت إلى هـذا الواقـع المريـر. إنّني أجـد في تكـرار بعض المواقـف ضرورة لتوضيـح الأبعـاد الّـتي تعيشـها القضيّـة الفلسـطينيّة الآن، وهي أبعـاد معـادة...

ومكـرّرة... وتلـفّ الشّـعب الفلسـطينيّ لفّاً. وإذا كانـت الثّورة المصريّـة أوّل ردّ على هـذا الهـوان، فقـد تلتهـا الثّـورة السّـوريّة والإنقـلاب في لبنـان، وطرد كلوب باشـا شرّ طـردة مـن خـلال ضغـط الجماهـير، وتمـرّد الجيـش العـربيّ الأردنيّ على النّفوذ والتّدخّـل البريطـانيّ في شـؤون الأردنّ والدّول العربيّـة الأخـرى وسـقوط حلـف بغـداد الـرّديء، واسـترداد الجماهـير العربيّـة بعض روحهـا، وحضورهـا، وكرامتها، وشرفهـا الّـتي هـدرت في فلسـطين... عنـوان هـذه الكرامـة! وعنوان الـشّرف حتّى يومنـا هذا!

في هـذا الوقـت تشـتّت جهـد الشّـباب الفلسـطينيّ في الانتمـاء إلى الأحـزاب القوميّـة والدّينيّـة واليسـاريّة والرّديكاليّـة وفي كلّ الاتّجاهات والحـركات الّتي برزت بعـد الثّـورات العربيّـة الحديثة، إن جـاز اعتبارهـا كذلك.

إنّ هـذه الأحـزاب الّتي تـمّ الانتمـاء إليها لم تقدّم شـيئا للقضيّة الفلسـطينيّة اللّهُمَّ إلّا الشّـعارات الفضفاضـة، حيـث كانـت كلّ حركـة «تتمسّـح» بالقضيّـة الفلسـطينيّة لاسـتقطاب أكبر عدد ممكن من الشّـباب لعضويتها، ولـم تقدّم الدّول «الثّائـرة، أو الدّول القوميّـة» شـيئاً للقضيّة الفلسـطينيّة.

لقـد عشـت هـذه المرحلة منـذ بدايتها، بـل وكنت أميـل إلى أكـثر الأحزاب «صراحـة» -هكـذا كنت أتصـوّر- إلى حـزب التّحرير، ولكن عندما بـدأت العمل في البنـك العـربيّ في عمّـان كنـت أشـاهد تلـك المظاهـرات تحرّك شـارع السّـلط مـن تحـت أعيننـا، وكنت أنظـر إلى تـوالي مظاهـرات الأحـزاب تباعاً، لكـنّ تلك المظاهـرات لـم تعـن لي شـيئاً، وأعتقـد أنّه من خـلال موقـعي في الطّابـق الثّاني من البنـك، كنـت أشـعر أنّ مـا أراه أصغر ممّـا أريد، بـل إنّـني كنـت أرى أنّ الصّراع بـين تلك الأحـزاب كان يضعـف القضيّـة الفلسـطينيّة بدلاً مـن تقويتها.

لقد كانت هذه الأحزاب تناقض وتخالف بعضها بعضاً، بل وتظهر أنّ هناك صراعا فيما بينها حتّى في أغانيها وأناشيدها... إنّني هنا لا أريد أنّ أتناقض مع تلك القوى وتلك الأحزاب أو امتدحها، لكنّني أريد في نفس الوقت أن أبحث عن مبرّر لتشتيت هذا الجهد للشّباب الفلسطينيّ في الانتماء والبحث من خلال هذه الأحزاب عن نافذة أو بوابة أو نقطة ضوء نحو تحرير فلسطين.

كان الفلسطينيّون ينظرون إلى ثورات الشّعوب الأخرى بعين التّقدير الكبير، والحلم الّذي كان يترافق مع انتصار تلك الثّورات.

كان الفلسطينيّون-على أنغام هذا الحلم- يواجهون القمع والاضطهاد من أجل سحق حتى ذاك الحلم.

كانت الثّورة البلشفيّة في روسيا محطّ اهتمامهم، رغم تناقضها مع عقائدهم وعاداتهم ومسلكهم وتوجهاتهم، لكنّ بعضهم وجد فيها روح الخلاص من هذا العدّو القادم إلينا من روسيا و أوروبا الشّرقيّة، والّذي أحتقر وعذّب وشرّد من كلّ العالم ليمارس علينا كلّ تلك الأساليب القمعيّة، وبطرق أحدث وأشدّ.

لقد كانت ثورة كوبا والصّين والجزائر ومصر عناوين كبيرة تحتلّ جزءاً كبيراً من الحلم الفلسطينيّ في التّحرير والحرّيّة.

ورغم أنّ الأرض الفلسطينيّة المتبقّية قد تمّ تقسيمها ما بين الإدارتين الأردنيّة والمصريّة، إلّا أنّ هناك أخطاراً جسيمة حلّت على الشّعب الفلسطينيّ من خلال محاولات إبعاد الشّباب الفلسطينيّ عن التّفكير في تحرير وطنه وأرضه.

ويحضرني في هذا السّياق موقف مضحك مبكٍ في نفس الوقت. فقد تدخّلت الأمم المتّحدة عام ١٩٥٤ من أجل فرض نظام الوصاية على قطاع

غـزّة، وخـرج الشّـعب برمته في مظاهـرات تطالب بعـودة الحكـم والإدارة المصريّة للقطـاع، ورجعـت الإدارة المصريّـة، ولذلـك... يـتردّد في الخاطـر سـؤال: ألـم يكن نظـام الوصايـة الأمميّـة أفضل مـن الوصايـة المصريّة؟! ونفس السـؤال يفرض نفسـه حـول تقسـيم فلسـطين، ونحـن نعـاني الآن ممّـا سـبق مـن مـآسٍ متواصلـة ضـدّ الشّـعب الفلسـطينيّ في كلّ الأرض!!

إنّـني أكـرّر هنا رؤيـتي باعتبـار أنّ رابطـة الطّلبـة الفلسـطينيّين في القاهرة كانـت النّـواه الأولى لمجمـوع الأنويـة والخلايـا العاملـة بصمـت وتحـت الأرض للشّـعب الفلسـطينيّ في الوطن والشّـتات... ورغـم أنّ غزّة كانت القاعـدة المتحرّكة للعمـل الفلسـطينيّ، إلّا أنّ الضّفّـة الغربيّة كانت تختزن العديد مـن الخلايا الجاهزة للانطـلاق مـن أجـل تحريـر الوطـن الفلسـطينيّ... وهكـذا حصـل مـع الانطلاقة العلنيّـة الأولى في ١٩٦٥/١/١، والّـتي لـم تتوقّـف، ولـن تتوقف!!

حكومة عموم فلسطين... المشروع المرفوض!!؟

بدعوة من الهيئة العربيّة العليا في أواخر أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ إلى رؤساء البلديات والمجالس المحليّة والغرف التّجاريّة واللجان القوميّة والنقابات والقبائل والأحزاب السّياسيّة والطّوائف الدّينيّة تمّ تشكيل مجلس وطنيّ فلسطينيّ، وعقد المجلس أوّل مرّة في غزّة بتاريخ ١٩٤٨/٩/٣٠، وحضر الاجتماع ٨٥ شخصّاً، ثمّ ازداد العدّد في اليوم التّالي إلى ٩٧ شخصاً، ولم يحضر ممثلو الضّفة الغربيّة، وأبرقوا إلى المجلس، وجاء في ذلك: «منعنا من قبل السّلطات الأردنيّة من الحضور إلى غزّة، نؤيدكم وأعضاء حكومتكم».

وفي ١٩٤٨/١٠/١ أعلن الحاجّ أمين الحسينيّ قرار استقلال فلسطين... وقد سبق هذا الإعلان إعداد دستور للحكومة عرض على المجلس الوطنيّ، وقد جاء في المادّة التّاسعة منه:

«تعتبر حكومة عموم فلسطين جهازاً شرعيّاً لممارسة جميع السّلطات التّشريعيّة والقضائيّة والتّنفيذيّة وفق نصوص هذا النّظام في جميع فلسطين بكامل حدودها كما كانت قبل انتهاء الانتداب البريطانيّ في ١٩٤٨/٥/١٥.

بناءً على ما تقدّم أصبحت فلسطين عضواً في جامعة الدّول العربيّة، ودعيت حكومة عموم فلسطين إلى دورة مجلس الجّامعة العربيّة في ١٩٤٨/١٠/٣٠. وبالطّبع اعترفت الدّول العربيّة الممثّلة في الجّامعة بحكومة عموم فلسطين باستثناء الأردنّ والعراق، وكذلك لم تقبل الأمم المتّحدة بهذا التّمثيل.

ورغـم اجتمـاع الأردنّ ومطالبتـه الجّامعة سـحب الاعـتراف بحكومة عموم فلسـطين إلّا أنّ الجّامعـة رفضـت الطّلـب، وتـمّ حصر مهمّـات الحكومـة في ثلاثة بنود محـدّدة، وهي:

- **حضور رئيس الحكومة الاجتماعات الجّامعة العربيّة كممثّل لفلسطين.**

- **إصـدار جـوازات السّـفر الّـتي لـم تطلبهـا مـن المقيمـين في غـزّة، حيـث اعترفـت بهذا الجّـواز الدّول العربيّـة باسـتثناء الأردنّ، واعترفـت بالجّـواز كذلـك أفغانسـتان!!**

- **تقـدّم الحكومة بعـض الخدمات الخاصّة بالتّوظيـف والعمـل في الدّول العربيّة، وكذلك خدمـات لدخول الطّـلاب إلى الجّامعات المصريّـة والعربيّة.**

ورغـم اتّفاقيـات الهدنة بين بعـض الدّول العربيّـة وإسرائيل بـقي الحاجّ أمين الحسـينيّ والهيئة العربيّة يسـعون لتكوين قوّة عسـكريّة من الفلسـطينيين وخاصّة في غـزّة بعد تصفيّـة جيش الجّهاد المقـدّس عام ١٩٤٩.

إنّ تدويـن التّاريـخ الفلسـطينيّ بالذّات يتطلّـب دقّه وجرأه وبحثـاً عميقاً في الأحـداث والتّواريخ والأسـماء؛ لأن واقـع النّكبة، وتشرّد الشّـعب الفلسـطينيّ في كلّ أرجـاء الأرض يجـب أن يؤكّـد على أنّ التّقصـير في حرب فلسـطين، واغتصاب أرضهـا بقـوّة سـلاح العصابـات الصّهيونيّـة ليـس سـببه قـوّة هـذه العصابـات وسـلاحها الكثـير والحديث وقوّة تدريبهـم، بل لأنّ الحكومـات والإدارات العربيّة جمعـاء لـم تكن لديهـا الإرادة في تحريـر ما أغتصب مـن أرض، بل كانـت إرادتها منصبّـة على حمايـة سـلطتها وكياناتها السياسـية.

ومـن ناحيـة أخرى فـإنّ الأحزاب والقـوى والحـركات الفلسـطينيّة لم تخرج

مـن فلسـطين حاملة أهدافهـا وفكرها، بل التحقـت مجبرة بأحـزاب الدّول العربيّة، مـبرّرة الأمـور بالقـول: إنّ الواقـع العـربيّ واحد وأنّ هـذه أمة واحـدة، حيث ترافق ذلـك مـع قمع شـديد من الأنظمـة العربيّـة لأيّ تحرّك سـياسيّ فلسـطينيّ، وظهرت ملامـح -دعمتها إسرائيـل وبعـض الدّول العربيّة- تنادي بـضرورة ذوبان اللاّجئين الفلسـطينيّين في تلـك المخيّمـات العربيّـة، وهـو مـا تحلـم بـه إسرائيل حـتّى اليوم لتنـهي قضيّة اللاّجئـين الفلسـطينيّين، وتلغي الجوهـر القانونيّ والإنسـانيّ لعودتهم، وتـبرّر وجود إسرائيـل على الأرض المغتصبـة قانونيّاً.

وهنـا ظهـر أنّ القضيّـة الفلسـطينيّة هي قضيّـة لاجئـين، وعلى الدّول الّـتي اسـتقبلتهم أنّ تؤمّـن كلّ وجـوه اندماجهـم في مجتمعاتهـا. وهنا لا بدّ من الإشـارة إلى أنّ الشّـعب الفلسـطينيّ في تلـك الحقبـة مـن التّاريـخ الأسـود لـم يكـن على قلب رجـل واحد، فتنازع رجـال العشـائر والعائلات الفلسـطينيّة، وتنازعـت الأحزاب والحـركات الدّينيـة والقوميّـة فيمـا بينهـا، فأدّى ذلـك إلى ضعف مكشـوف، أعطى إمكانيـة التلاعـب بالهويّة الفلسـطينيّة وكذلـك تـوارت الكيانيّة الفلسـطينيّة الّتي كانت تمثّـل في الهيئـة العربيّـة العليا.

لقـد أرغم ما بـين (٧٥٠) ألف ومليون فلسـطينيّ على اللجـوء إلى دول الجوار والضّفّـة الغربيّـة وقطاع غـزّة، فلجـأ إلى الضّفّة الغربيّـة من مـدن الأرض المحتّلة وقراهـا عام ١٩٤٨ /٣٦٠ ألـف لاجئ، و٢٠٠ ألـف إلى قطاع غزّة، و٨٢ ألفا إلى سـوريا، و١٠٤ إلى لبنـان، و١١٠ إلى شرق الأردنّ، و١٢ ألفـا في بقيّـة الأقطار العربيّة.

لقـد قدّمـت مـصر للفلسـطينيّين الهويّـة الفلسـطينيّة، ولـم تدمجهـم في المجتمـع المـصريّ، إذ إنّ وثائـق السّـفر المصريّـة ليـس فيهـا أيّـة تسـهيلات في التّعامـل، حـتّى الدخـول إليهـا كان مقيّـداً، وبهـذا ضمّنـت بقـاء أكـبر عـدد من

الفلسطينيّين في قطاع غزّة إلّا من حاز على تأشيرة دراسيّة أو عمل في إحدى دول الخليج العربيّ.

وفي الأرض المحتّلة حمل الفلسطينيّون الّذين بقوا في أرضهم جوازات سفر إسرائيليّة. أمّا سوريا فقدّمت الكثير من التّسهيلات لهم حتّى أنّ حقوقهم اقتربت كثيراً من حقوق السّوريين في العمل والتّملك... أمّا الأردنّ فقد ضمّت الضّفّة الغربيّة مشكّلة بهذا الضمّ المملكة الأردنيّة، وأصبح النظام السياسي في الأردن هو الممثّل للفلسطينيّين.

لقد أخرج الفلسطينيّون اللاجئون أموالهم معهم؛ فالأثرياء منهم اندمجوا في المجتمعات الّتي لجئوا إليها، ويظهر هذا بشكل واضح عند أثرياء فلسطين في لبنان، حيث حصلوا على الجنسيّة اللبنانيّة ورفعوا مستوى الاقتصاد اللبنانيّ في كلّ المجالات... وهكذا حصل في الأردنّ الّذي تميّز بإعطاء الجنسيّة الأردنيّة لكلّ اللاجئين الفلسطينيّين الّذين ذهب العديد منهم إلى الدّول العربيّة الخليجيّة وليبيا وغيرها.

الأردنّ وفلسطين بعد النّكبة

يمكنني القول الآن أنّ (الأردنّ وفلسطين كلاهما أولاً)، فنكبة عام ١٩٤٨ وضعت الجزء المتبقّي من فلسطين تحت أنظار العالم العربيّ، وجامعته العربيّة الضعيفة، وأفرزت الخلافات الصّامتة بين قياداتها، ووجدت القضيّة والنّكبة في أتون هذه الصّراعات الّتي خلقّتها لهم بريطانيا ليبقوا منشغلين بعيدين عن القضيّة النّكبة و...

ففي ٢٣/ أيلول/ سبتمبر/١٩٤٨ أعلنت الهيئة العربيّة العليا بقيادة الحاجّ أمين الحسينّي إنشاء حكومة عموم فلسطين برئاسة أحمد حلمي عبدالباقي، وعضوية كلٍّ من: جمال الحسينّي، ورجائي الحسينّي، وعوني عبدالهادي، والدّكتور حسين فخري الخالدي، وعلي حنّا، وميشيل إبيكاربوس، ويوسف صهيون، وأمين عقل.

ورافق ذلك إنشاء المجلس الوطنيّ -الّذي أشرنا إليه سابقاً- والّذي تألّف من رؤساء البلديات، والمجالس المحليّة والقرويّة، ورؤساء اللجان القوميّة، والأحزاب، والغرف التّجاريّة، والهيئات الشّعبيّة والنّقابات، وعدد من الشخصيات المحلية الاعتبارية، وعقد المجلس الوطنيّ أوّل إجتماعاته في غزّة في ١/ تشرين الأوّل- أكتوبر-١٩٤٨، حيث اتّخذها الحاجّ أمين الحسينّي مقّراً له.

وفي هذا الاجتماع والّذي كان على هيئة (دورة أولى للمجلس الوطنيّ) أقرّ دستوراً من ١٨ مادّة، ومنح الحكومة المعنية الثّقة، وأعلن استقلال فلسطين

دولـة ديمقراطيّة ذات سـيادة بحدودها الدّوليّة... وبالمقابـل، وفي نفس يوم الاجتماع في غـزّة عقـد مؤتمـر في عمّـان برئاسـة الشّـيخ سـليمان التّـاجي الفـاروقي، أحـد معـارضي المفتي الحـاجّ أمين الحسـينيّ الّذي قرّر عـدم الموافقـة على حكومة «عموم فلسـطين»، وأبـرق بمعارضتهـا إلى الجامعـة العربيّـة، وأعلـن أن الملـك عبدالله بن الحسـين هو الممثّل لشـعب فلسـطين.

وهنـا، ورغـم بقـاء رئيـس حكومـة عموم فلسـطين أحمـد حلـمي عبدالباقي شـاغلا مقعد مراقـب في اجتماعات مجلس جامعـة الدّول العربيّـة، إلّا أنّ الاهتمام السّـابق الّذي أعلنتـه الدّول العربيّـة تجـاه حكومـة عمـوم فلسـطين بـدأ يختـفي ويضعـف حـتّى بلـغ الأمـر إلى توقّـف الجامعـة العربيّـة عن دعـوة ممثّل فلسـطين لاجتمـاعات المجلـس، بـل بلـغ الأمـر في الحكومـة المصريّـة إلى منـع الحكومة من ممارسـة أيّـة أنشـطة لهـا في قطاع غـزّة بحكـم تسـلّم مـصر إدارة القطاع.

بالمقابـل، وفي ٢/ تشريـن أوّل/ أكتوبـر/١٩٤٨، اتّخذ الملك عبدالله بن الحسـين قـراراً غير معلـن يضـمّ بموجبه الأراضي الفلسـطينيّة الّـتي كانت خارج السّـيطرة واحتـلال القـوّات الصّهيونيّـة، والّـتي كانت تخضع لسـيطرة الجيش العـربيّ الأردنيّ والقـوات العراقيّـة إلى المملكـة الأردنيّـة، وهـذه الأراضي والمناطـق هي: القـدس القديمـة، وحي الشّـيخ جـرّاح في القـدس الجديـدة، والمناطـق الواقعـة شرق سـور القـدس القديـم، وتضمّ مستشـفى فكتوريا ومستشـفى هداسـا، والجامعـة العبريّة، وبيـت لحـم، والخليـل، وبيـت جـالا، وبيـت سـاحور، وأريحـا، ورام الله، ومطـار القـدس (قلنديـا)، وبيرزيـت، ونابلـس وطولكـرم، ويعبـد، وطوبـاس، وقلقيليـة، ومـا يتبع هـذه المناطق مـن قـرى وأراضٍ.

ونظـراً لأنّ إسرائيـل أصبحـت دولـة وأعلـن عنهـا في ١٥/ أيـار/ مايـو ١٩٤٨

شعر الملك عبدالله أنّ هذه الأراضي يمكن أنّ تحتلّها إسرائيل نظرا للقوّة الهائلة آنذاك، مقارنة مع كلّ القوى العربيّة، فطلب من بريطانيا مساندته في تنفيذ هذا القرار، وحمايته بناء على الاتّفاقيّة الموقّعة بين الأردنّ وبريطانيا، والّتي تنصّ على حماية الأردنّ إن وقع عليه اعتداء أو واجه خطراً حقيقياً. لكنّ البريطانيين، وكبقيّة الدّول الاستعماريّة رفضت طلب الملك، وأبلغته أنّ هذا الموضوع لا يتّفق مع القوانين الدّوليّة، بالإضافة إلى أنّ هناك قراراً صدر عن هيئة الأمم المتّحدة يقضي بتقسيم فلسطين، وليس هناك أيّ نصّ يدعو إلى ضمّ القسم العربيّ من فلسطين الوارد في قرار التّقسيم إلى الأردنّ. وبالتّالي من الضّروري أنّ يسبق ذلك قراراً من الشّعب الفلسطينيّ (أهالي فلسطين) يرغبون ويطالبون فيه ضمّ منطقتهم إلى الأردنّ لأنّهم أصحاب البلاد.

مؤتمر أريحا ١/كانون أول/١٩٤٨

في الأوّل من شهر كانون الأوّل ١٩٤٨ عقد مؤتمر في فندق «نزال» برئاسة محمّد علي الجعبريّ وتحت عناية الحاكم العسكريّ الأردنيّ العامّ عمر باشا مطر، وحضره كذلك نحو مئتي شخص من وجهاء فلسطين الّذين حاولوا تأجيل عقد هذا المؤتمر.

لقد سبق هذا المؤتمر (فندق نزال)، مؤتمراً شعبياً مماثل عقد في سينما البترا، وفي عمان في الأوّل من تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٤٨. وفي نفس الوقت، ومن أجل منع أيّ اعتراض على أيّة قرارات، أحضر الجعبريّ معه أكثر من مائتي مسلّح من معاونيه.

صدر عن مؤتمر الجعبريّ الّذي عقد في فندق نزّال قرار يقضي بوحدة الضّفّة الغربيّة والضّفّة الشرقيّة تحت ظلّ العرش الهاشميّ. وفي نهاية المؤتمر ألقى الشّيخ الجعبريّ خطاباً تهجّم فيه على الهيئة العربيّة العليا وقيادتها، وكذلك على الدّول العربيّة الّتي تؤيّد الهيئة، وقال: «نحن لا يمثّلنا إلّا الملك عبدالله، ونعلن مبايعتنا له، ويستذكر إقامة حكومة عموم فلسطين في غزّة، وهي لا تمثّلنا»... وشكّل الجعبريّ وفداً توجّه إلى الملك عبدالله، حيث قدّم القرارات إليه، وأرسل نسخاً منها إلى جامعة الدّول العربيّة.

وأثناء لقاء الملك عبد الله مع وفد الجعبريّ قال: « لقد حملتموني حملاً ثقيلا، وإنّني سأبذل جهدي في سبيل أداء هذه الأمانة». وبناء على حديث الملك

عبـد الله أصـدر مجلـس الـوزراء الأردنيّ برئاسـة توفيق أبـو الهوى بلاغاً جـاء فيه: «إنّ الحكومـة الأردنيّـة تقدّر حقّ التقّدير رغبة سـكان فلسـطين المحتلّـة، في مؤتمر أريحـا فيمـا يتعلّـق بوحدة البلديـن الشـقيقتين: شرق الأردن وفلسـطين، وهي رغبة متّفقـة تمامـاً مع رغبة الحكومـة الأردنيّة وسـتبادر إلى اتّخاذ الإجراءات الدّسـتوريّة لتحقيقها»!!

أثـار هـذا القـرار حفيظـة الهيئـة العربيّـة العليـا، والحـاجّ أمـين الحسـينيّ، ومـصر، وسـوريا (ودائـرة الإفتـاء المصريّـة) ولم تحـظ أيّة شـخصيّة عربيّـة في ذلك الوقـت مـن الشّـتائم والإهانـة كما حظـي بها الجعـبريّ، وحـاول العراقيـون تهدئة الوضـع بالطّلـب مـن الملـك عبـد الله تأجيـل الإعـلان عـن وحـدة الضّفّتـين، وبالطّبـع رفـض الملـك عبد الله ذلـك، وعقد في سـينما دنيـا في رام الله مؤتمراً آخر حـضره الملـك عبـد الله، وعبـد الله التـل قائـد منطقة القـدس العسـكريّة وفلاح المدادحـة، وعـدد مـن الوجهاء الفلسـطينيين، حيـث تقـرّر في هذا المؤتمـر ضرورة وحـدة الضّفّتين.

كان هنـاك شـخصيّات فلسـطينيّة تعـارض مؤتمـر أريحـا والوحـدة، وقـد تمّ إهمالهـا في مؤتمـر أريحا ومؤتمـر رام الله، ولهذا كان صوتها عاليـاً في منطقة نابلس، وطالـب هـؤلاء في مؤتمـر أو اجتمـاع لوجهاء شـمال الضّفّـة دعم الجيـش المصريّ، وفي الوقـت نفسـه طالبـوا أنّ تتوحّـد كلّ فلسـطين مـع شرق الأردنّ لتكويـن بـلد واحـد بقيـادة الملـك عبـد الله... وتنازعـت الأحـزاب والحـركات الدينيـة والقومية فيمـا بينهـا، فـأدى ذلـك إلى ضعف مكشـوف، أعطـت إمكانيـة التلاعـب بالهوية الفلسـطينية وكذلـك ألغـت الكيانيّـة الفلسـطينية الّـتي كانـت تتمثـل في الهيئـة العربيّـة العليا.

صُـوَر

أبو عمار وأبو جهاد يتوسطهما السفير المصري في بكين-الصين /أواخر الخمسينات

الرئيس أبو عمار والقائد أبو جهاد في لبنان

الثوار الفلسطينيين عام ١٩٣٦

صورة لمقاتلي الثورة الفلسطينية في لبنان عام ١٩٦٩

كتائب مجاهدي الثورة الفلسطينية يظهر بينهم القائد عبد القادر الحسيني ونائبه كامل عريقات

الثوار الفلسطينين خلال الاستعدادات للتصدي للقوات الصهيونية في الثلاثينات

مقاتلي الثورة الفلسطينية خلال تصديهم للعصابات الصهيونية ١٩٤٨

معسكرات تدريب قوات الثورة الفلسطينية في بيروت عام ١٩٧٠

الرئيس أبو عمار مع مقاتلي " حركة فتح" في لبنان

الشهيد عطا الزير الشهيد فؤاد حجازي الشهيد محمد جمجوم

شهداء الثورة الفلسطينية الذين أعدمتهم قوات الاستعمار الانجليزي ١٧ حزيران ١٩٣٠

أبو عمار والشاعر محمود درويش في لبنان

أبوعلاء وزملاء العمل في البنك العربي / عمان - ١٩٥٦

الرئيس أبو عمار وأبوعلاء أثناء مؤتمر فتح - بيروت -١٩٧٩ -

أبو علاء وفيصل الحسيني سنة ١٩٩٩

الرئيس أبو عمار ومجموعة من مقاتلي الثورة الفلسطينية في الأردن

الرئيس أبو عمار خلال تفقده لمواقع مقاتلي الثورة في بيروت

الرئيس أبو عمار والرئيس الفرنسي جاك شيراك وأبوعلاء في المجلس التشريعي الفلسطيني - رام الله - سنة ٢٠٠٠

الرئيس الفرنسي جاك شيراك خلال إستقباله رئيس الوزراء الفلسطيني أبو علاء -في قصر الأليزيه في باريس

أبوعلاء والقائد نيلسون مانديلا في زيارة للمجلس التشريعي الفلسطيني-رام الله

أبوعلاء ورئيسة البرلمان الأوروبي في زيارة للمجلس التشريعي الفلسطيني في رام الله

أحمد قريع (أبو علاء) ١٩٣٦م - ٢٠٢٣م

- من مواليد أبوديس / القدس.
- شخصية بارزة في العمل السياسي الفلسطيني، تفرغ تماماً لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) عام ١٩٦٨، بعد أربعة عشر عاماً قضاها في العمل المصرفي في المملكة العربية السعودية.
- أسس مؤسسة صامد (معامل أبناء شهداء فلسطين) في بيروت في أوائل السبعينيات وشغل منصب مديرها العام حتى توقفها عن العمل نهائياً في (٢٠٠٧/٢٠٠٨).
- تولّى منصب مدير عام دائرة الشؤون الاقتصادية والتخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية، حيث عمل من خلال هذه الدائرة على دعم وإنشاء العديد من المشاريع والمؤسسات الفلسطينية في الوطن مثل: الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، مجلس الإسكان الفلسطيني، ومؤسسات الإقراض وغيرها.
- شغل منصب محافظ فلسطين لدى البنك الإسلامي للتنمية منذ ١٩٨٧حتى عام ١٩٩٦.
- عضوٌ في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعضوٌ في المجلس الوطني الفلسطيني.
- أُنتخب عضواً في اللجنة المركزية لحركة فتح في آب/ أغسطس عام ١٩٨٩.
- أشرف على إعداد البرنامج العام لإنماء الإقتصاد الوطني الفلسطيني للسنوات ١٩٩٤- ٢٠٠٠.
- شغل منصب المدير العام للمجلس الإقتصادي الفلسطيني للتنمية والإعمار(بكدار).
- عُيّن وزيراً للإقتصاد والتجارة ووزيراً للصناعة في أول حكومة فلسطينية في الفترة (١٩٩٤-١٩٩٦).
- أُنتخب عضوًا في المجلس التشريعي الفلسطيني بعد الإنتخابات العامة الفلسطينية عام ١٩٩٦ عن دائرة محافظة القدس ممثلًا عن حركة فتح، وأنتخب رئيساً للمجلس التشريعي الفلسطيني عام ١٩٩٦ وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ٢٠٠٣.
- تولى منصب رئيس مجلس الوزراء الفلسطيني منذ أكتوبر ٢٠٠٣ وحتى آذار ٢٠٠٦، ترأس خلالها ثلاث حكومات فلسطينية (الحكومة السابعة والحكومة الثامنة والحكومة التاسعة).
- تولى مهمة المفوض العام لمفوضية التعبئة والتنظيم في حركة فتح حتى نهاية عام ٢٠٠٩.
- أُنتخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وعين رئيساً لدائرة شؤون القدس في منظمة التحرير الفلسطينية في شهر تشرين أول/أكتوبر ٢٠٠٩.
- أُنتخب أمين سر المجلس الاستشاري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني عام ٢٠١١.
- ترأس مجلس أمناء جامعة القدس ورئيس مجلس إدارة معهد القدس للدراسات والأبحاث حتى وفاته عام ٢٠٢٣.
- لعب دوراً أساسياً في عملية السلام في الشرق الأوسط حيث شغل منصب المنسق العام للوفود الفلسطينية للمفاوضات المتعددة الأطراف، وترأس الوفد الفلسطيني خلال المباحثات الفلسطينية الإسرائيلية في أوسلو/ النرويج، التي انتهت باتفاق إعلان المبادئ الذي وقّعه بالأحرف الأولى عن الجانب الفلسطيني في العشرين من آب/ أغسطس عام ١٩٩٣. وترأس الفريق الفلسطيني في المفاوضات التي أدت إلى التوقيع على اتفاقية المرحلة الانتقالية الثانية) عام ١٩٩٥، كما ترأس الجانب الفلسطيني في لجنة التوجيه لتنفيذ هذه الاتفاقية. ترأس الوفد الفلسطيني في مباحثات الوضع النهائي مع الإسرائيليين خلال مفاوضات ستوكهولم وشارك في مفاوضات كامب ديفيد عام ٢٠٠٠. وترأس فريق المفاوضات الفلسطيني في المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية في طابا عام ٢٠٠١، كما ترأس فريق المفاوضات الفلسطيني إلى مفاوضات الوضع النهائي التي انطلقت بعد مؤتمر أنابوليس للسلام في الشرق الأوسط عام ٢٠٠٧.

على دروب الفتح (١)

البداية

في هذه السلسلة من الإصدارات، التي وطدت نفسي على كتابتها، أود التذكير فقط، أو قل إنعاش الذاكرة العامة، بالحقائق التاريخية التي عاشها الشعب الفلسطيني على مدى نحو قرن من الزمن، لا من أجل تقديم رواية تاريخية جديدة، أو إعادة كتابتها بصورة مختلفة عما إستقر في المخيلة المشتركة، وأنما بهدف وضعها كمقدمة تمهيدية لما سوف يلي من حكاية طويلة، سوف ترتقي فيما بعد الى مرتبة شاهد على العصر، وذلك عند تدوين الأجزاء المتأخرة من هذه الحكاية.

ISBN 978-9950-364-35-6

9 789950 364356

جامعة القدس
معهد القدس للدراسات والأبحاث